ذكريات طفولة [١]

مارسيل بانيول



مجد أبي



ترجمة : محمد سيف

سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤٠)

ذكريات طفولة [١]

مجد أبي

Souvenirs d'enfance (1)
La Gloire De Mon Pérc
Marcel Pagnol
Editions de Fallois

ذكريات طفولة (١)
مجد أبي
مارسيل بانيول
ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٢٦٩١٩٨



صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسين
لوحة الغلاف
تفصيلة من «سنونو في الخلاء» لفيليبو باليتزي

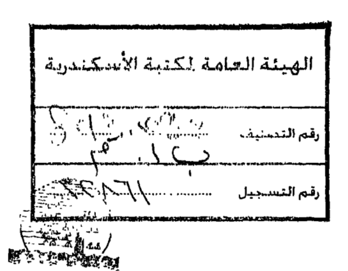
رقم الإيداع: ٩٦/٨٢٣٤
الترقيم الدولي: ISBN 977 283 - 010 8

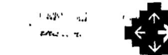
ذكريات طفولة [١]

مارسيل بانيول

مجد أبي

ترجمة : محمد سيف





دار شرقيات للنشر والتوزيع

ديباجة

هذه هي المرة الأولى ـ باستثناء بعض محاولات متواضعة ـ التي أكتب فيها نثراً.

يبدو لي بالفعل أن هناك تبايناً بين الأنواع الأدبية الثلاثة: الشعر الغنائي، والنص المسرحي، والنثر، الذي يكتسب خصوصيته من كونه مكتوباً للقراءة.

وما يخيفني، في كتابة النثر، ليس اختيار الكلمات أو التراكيب، ولا الدقة النحوية ـ التي هي، في نهاية المطاف، أمور يقدر عليها الجميع ـ، فما أحسب حسابه هو حالة الروائي، وبالتحديد، هذه الحالة الأكثر خطورة، وأعني بها حالة كاتب الذكريات.

فالحديث عن الذات أمر شديد الصعوبة، لأن كل سوء يُحدّثنا به كاتبٌ عن نفسه، نصدقه بكل حماس؛ وكل خير ينسبه لها لا نسلم به إلا ببرهان، ونأسف دائماً لأنه لم يدع الحديث في هذا الشأن لغيره من الناس.

في هذه الذكريات، لن أتحدث عن نفسي لا بخير ولا بسوء؛ فلست أتحدث عن ذاتي، وإنما عن ذلك الطفل الذي لم أعده بعد، هذا الشخص الصغير الذي عرفته وتلاشى مع الزمن، كما تختفي عصافير الدوري التي لا تخلِّف وراءها هيكلاً عظيماً. فضلاً عن كون هذا الطفل ليس موضوع هذا الكتاب، وإنما هو الشاهد على أحداث دقيقة الصغر.

مع ذلك، فأنا الذي سأحرر ما يقوله نثراً . وهو أمر يخلو من الفطنة، أعني أن يغير المرء مهنته في سن الستين.

إن لغة المسرح لابد أن ترنَّ في الآذان عند خروجها من فم الممثل، ومن الضروري أن تبدو كما لو أنها مرتجلة، ولابد أن يكون معناها متضمناً بها مباشرة، لأنه إن انقطع مرة، ضاع. من ناحية أخرى، لأن اللغة المسرحية لا تصلح لأن تكون نموذجاً لأسلوب أدبي، فهي ليست لغة الكاتب، بل لغة الشخصية.

إن إبداع الكاتب الدرامي يكمن في اختياره للشخصيات، وفي الأحاسيس التي يسبغها عليها، وفي وضع مسار الحدث. أما عن موضعه هو الخاص من العمل، فإن عليه أن يكون متوازياً. وأن يلتزم الصمت! لأنه عندما يحاول أن يسمع صوت نفسه، يسقط المضمون الدرامي للعمل، لذا، فعليه أن يظل في الكواليس، لأننا لا نقوم في المسرح سوى بالتعبير عن آراء الشخصيات، فإذا أراد المؤلف أن يشكّل هذه الآراء بنفسه، فإن على ممثليه أن يحدثونا عما يريد قوله، فهم الذين يطرحون علينا انفعالاته وأفكاره، بجعلنا نعتقد أنها انفعالاتنا وأفكارنا نحن.

أما وضع الكاتب الأديب فهو أصعب بغير شك.

فلم يعد الممثل المتمكن هو المتحدث. بل أنا. وعليَّ عبر أداة تعبيري الوحيدة، وهي الكتابة، أن أتعرّى كلية، لأنني إن لم أكن صادقاً ـ أي بلا حياء بالمرة ـ سأضيع وقتي في اللتّ والعجن على الورق.

يتوجب عليَّ إذن الخروج من الكواليس، والجلوس في مواجهة القارئ الذي سيتأملني بإمعان لساعتين أو ثلاثة. وهي فكرة مقلقة للغاية، أصابتني زمناً طويلاً بالشّلل.

غير أنني تفحصت الجانب الآخر للموضوع.

فمتفرج المسرح يأتيك مرتدياً ياقة ورباط عنق، وهذه الحُلّة المعمّمة التي فرضها علينا الإنجليز.

فهو ليس في بيته، وقد دفع مبلغاً كبيراً لكي يجيء عندي أنا. كما أنه ليس جالساً في النهاية وحده، بل وسط آخرين من الجمهور، يرقبهم ويرقبونه. وهذا (هو السبب) الذي يجعله لا يهتم فحسب بالأدوار التي يلعبها أبطالي من الممثلين، وإنما بدوره (هو) الخاص كذلك، فهو نفسه يلعب دور المتفرج الذكي والمحترم.

وهو يعبر طيلة الوقت عن نفسه. بالضحك في غالب الأحيان، وبالتصفيق، مما يضفي السرور والتأثر على الكاتب في كواليسه. لكن هذا المتفرج في بعض الأحيان، يسعل، ويتمخط، ويغمغم، ويصفّر استهجاناً، ويخرج ساخطاً. ولا يجرؤ المؤلف على النظر لأحد، ويستسلم، مغموماً، للاستماع للتفسيرات دائمة اللوذعية لأصدقائه، وتصد نفسه عن تناول العشاء بعد ذلك.

أما القارئ ـ أقصد القارئ الحق ـ فهو دائماً صديق على وجه التقريب.

فهو الذي ذهب واختار كتاباً، وحمله تحت إبطه، ودعاه إلى بيته.

وهو سيقرأه في هدوء، جالساً في الركن الذي يحبّه، محاطاً بديكوره العائلي.

وهو سيقرأه وحده، فلن يتحمل أن يأتي شخص آخر ليقرأ معه من فوق أكتافه.

وسيكون بالطبع على سجيته، غليونه في يده، ومرتدياً عباءته المنزلية أو بيجامته.

ولا يعني كل هذا أنه سيحب الكتاب، فربما يهز أكتافه عند الصفحة الثلاثين. وربما يقول ببعض السخرية: «لا أدري كيف يطبع البعض مثل هذه البلاهات!».

لكن المؤلف لن يكون في هذه الحالة حاضراً، ولن يعرف شيئا أبداً. فعائلته، وبعض أصدقائه الأوفياء، سيسدلون أمام عينيه ستاراً من التقريظ الذي سيلطف من حرارة «الحمّام السُّخن».

غاية الأمر، أن نجاح العمل المسرحي يتم قياسه بوضوح تبعاً لحجم الإيراد ـ الذي يراجعه كل يوم محاسب من الديوان العام ـ وبعدد الحضور. لذا فسيكون من العبث بالقطع الاحتفال بنجاح الليلة المائة في اليوم الثلاثين للعرض! بينما يكون بمقدور ناشر متواطئ أن يزيّن كارثة روائية من إصداره بأن يطبع على النسخ الثلاثة الوحيدة التي أصدرها منها عبارة: «طبع من هذه الرواية خمسة عشر ألف نسخة».

إذن، فمهما كان النجاح الكبير للكتاب مساوياً لما تحظى به المسرحية، فإن الحمّام السُّخن الذي قد يتعرض له كاتب النثر، يظل أقل وحشية.

.. هذه هي الاعتبارات، قليلة الوجاهة، والمطمئنة في نفس الوقت، التي جعلتني أقرر نشر هذا العمل، الذي ليست له، مع ذلك، غير بعض طموحات قليلة. فهو ليس سوى شهادة على حقبة اختفت، وأغنية صغيرة للبر بالوالدين، قد يمكن النظر لها اليوم على أنها طرفة من الطرف.

مارسيل بانيول

في ذكرى ذَويَّ

ولدت في مدينة أوبان؛ أسفل الجارلبان الذي كانت الماعز ترعى أعلاه، في زمن الرعاة الأخيرين للماعز. والجارلبان برج هائل من الصخور المائلة للزرقة، قائم على حافة سهل العقاب، تلك الهضبة الصخرية التي تشرف على وادي الهوفون الأخضر.

وهذا البرج عرضه أكبر بعض الشيء من ارتفاعه، ولكن لكونه مرتفعاً فوق صخرة تعلو ستمائة متر فوق سطح البحر، فهو يشمخ عالياً في سماء الريف، وأحياناً ما كانت تأتي لتستريح فيه – للحظة – سحابة بيضاء من سحب شهر يوليو.

فهو ليس جبلاً إذن، ولكنّه ليس تلاً كذلك، هذا الجارلبان، الذي أوقد فيه رجال استطلاع ماريوس النار في الحطب، عندما رأوا في عمق الليل بريق نار على قمة القديس فكتوار، وهي النار التي طارت من كثيب لكثيب، في ليل يونيو، لتحط أخيراً على صخرة الكابيتول، تزف إلى روما أن متطوعيها في أراضي غالة أجهزوا بالذبح، في وادي إكس، على المائة ألف بربري من التوتوبوشوس الوثنيين.

كان أبي هو الطفل الخامس لحجّار من فالريا، على مقربة من أورانج، وقد استقرت العائلة في هذا المكان منذ عدة قرون. أما من أين جاءت ؟ فقد جاءت من إسبانيا بالقطع، لأنني وجدت في أرشيفات العمدية تسميتها أولاً بعائلة اللّسباني، وبعد ذلك الإسباني.

أضف إلى هذا، أنهم كانوا صناع سلاح. أباً عن جدّ، وكانوا يقسُّون أسنة

السيوف بغمسها في مياه مجري الأوفيز التي يعلوها الدخان، وهو العمل الذي كان احتكاراً إسبانيًا صرفاً كما يعلم الجميع.

غير أن الحاجة للشجاعة انقلبت نسبياً بما باعد في عملية الالتحام بين المقاتلين، فحلت الغدارات والطبنجات محل السيوف الطويلة والمهنّدة. مما جعل أسلافي يعملون بمجال الأسلحة النارية، أي يتحولون لصناعة البارود، والخراطيش والبنادق.

أحدهم، وهو سلف بعيد لأبي، طار ذات يوم من دكانه، عبر نافذة مغلقة، في مهرجان من الشرر، تحيطه الهالات الشمسيّة المدوِّمة، على حزمة من السهام النارية. ولم يمت، لكن خده الأيسر لم تعد لحيته تنمو عليه بعدها. وهو السبب الذي جعل البعض يطلقون عليه حتى نهاية حياته لقب لوروستي وهو ما يعني المسلوخ.

وربما كانت هذه الحادثة الاستعراضية هي السبب الذي جعل الأجيال التالية في عائلتي تقرر -بغير التخلّي عن الخراطيش والبنادق- ألاّ تعمل في تجهيز البارود بعد ذلك، وفضلوا العمل بصناعة الكرتون، وهي الصنعة التي يحترفونها لليوم.

إنه مثال رائع للحكمة اللاتينية، فقد عملوا أولاً في صناعة الصلب وهو مادة ثقيلة، صلدة، وقاطعة، ثم في البارود، الذي لا يحتمل سيجارة مشتعلة إلى جواره ؛ ثم كرسوا جهدهم للكرتون، وهو المنتج الخفيف، الطيِّع، رقيق الملمس، والذي هو في كل أحواله غير قابل للانفجار.

إلا أن جدي، الذي لم يكن الابن البكر لأبيه، لم يرث معمل الكرتون، وصار لسبب لا أدريه، حجاراً. لذا، فقد جال في فرنسا كلها، وانتهى به المطاف إلى فالريا، ثم إلى مرسيليا.

كان رجلاً قصيراً، عريض المنكبين، قوي العضلات. وحين عرفته، كان شعره الأبيض طويلاً يتدلى إلى رقبته، وكانت لحيته كبيرة مجعدة، وتقاطيع وجهه ناعمة، لكنها محدَّدة جداً، وعيناه السوداوان تلمعان كزيتونتين فجتين .

كانت سلطته رهيبة على أبنائه، وقراراته لا رادّ لها. لكن أحفاده لهم دلال عليه، فيجدلون لحيته، أو يضعون له الفاصوليا في أذنيه. وقد حدثني، بعض الأحيان، بوقار شديد عن مهنته، أو بالأحرى عن فنه، لأنه كان معلم تركيب أحجار.

لم يكن يكنّ تقديراً كبيرا للبنائين : «فنحن –كان يقول– نقيم الحوائط بالأحجار المتوافقة، أي المدمجة ببعضها بدقة، الواحدة في الأخريات، بالذكر والأنثي فنعالجها بالتنعيم، وتركيب العاشق والمعشوق، آية اللحمة الإلهية... نعم، نحن نصهر الرصاص في المجاري الفاصِلة بينها، لكي يمنع انزلاقها، لكنه يكون ملبَّساً بين كل كتلة وأخرى، فلا يرى. بينما يستعمل البناؤون الأحجار كما هي، ويسدون الفجوات بينها بكميات الملاط... فالبناء، دافن أحجار، وهو يواريها لأنه لم يعرف كيف يفصِّلها.

كان إذا قُدِّر له الحصول على يوم إجازة – ولم يكن ذلك يحدث أكثر من خمس أو ست مرات في العام – يصطحب عائلته للغداء في الخلاء، على بعد خمسين متراً من جسر الحراسة «بونت دي جارد» . وأثناء إعداد جدتي للطعام، وتوحُّل الأطفال في النهر، كان يصعد على قاعدة النصب، حاملاً مازورته التي يقيس بها، يختبر التحام الأحجار، ويعالج الآثار التي لحقت بها، ويتحسسها.

عقب الطعام، كان يجلس على العشب، أمام العائلة المتحلقة في قوس في مواجهة العمل المعماري الفريد التليد، إلى أن يحين المساء، وهو ينظر إليه. لذا، فبعد مرور ثلاثين عاماً على تلك الفترة، كان أبناؤه وبناته يرفعون أعينهم صوب السماء، عند ذكر اسم بونت دي جارد، وهم يتنهدون طويلاً.

لدي على مكتبي ثقالة ورق نفيسة، عبارة عن متوازي مستطيلات من

الحديد، مثقوب في منتصفه بفجوة بيضاوية، وفي كل طرف من أطرافه قمع محفور بعمق في المعدن الكابي. إنها مدقة جدي أندريه، التي دقت خلال خمسين عاما الرأس الصلدة لمقص الصلب.

هذا الرجل الحاذق لم يتلق في حياته سوى قسط قليل من التعليم. فقد كان يعرف القراءة ويوقع باسمه، ولكنه لم يتجاوز ذلك. لذا فقد عانى فيما بينه وبين نفسه طيلة حياته، وانتهى إلى الاعتقاد بأن العلم هو أعلى درجات السيادة، وتصور أن البشر الأعلى ثقافة هم الذين يعلمون الآخرين. والذي نزف من أجل هذا شرايينه الأربعة لكي يلحق أبناءه بسلك التعليم، مما جعل أبي في سن العشرين، يتخرج من مدرسة المعلمين بإكس أن بروفانس، ويصبح معلماً بالمدارس العامة.

كانت مدارس المعلمين في تلك الحقبة مدارس إكليريكية بمعنى الكلمة، على الرغم من أن دراسة اللاهوت فيها حلت محل دروس مضادة للاهوت. كانت هذه الدروس تلقن الشباب الصغار أن الكنيسة لم تكن أبداً إلا أداة للظلم. وأن هدف ومهمة القساوسة هو تعليق عصابات الجهل السوداء على أعين الشعب، بترديد حكايات الجحيم والفراديس على مسامعه. فضلاً عن أن الطوية السيئة للقساوسة كانت مثبتة في هذه الدروس بسبب استخدامهم للُغة اللاتينية، اللغة الغامضة، التي يخشى المؤمنون الجهلاء من قدرتها الغادرة على صناعة التعاويذ السحرية.

أما البابوية فقد اتُخذ مثالاً عليها في الأبوين بورجيا، ولم يكن حال الملوك بأفضل من حال البابوات، فهم هؤلاء الطغاة الغرائزيون الذين ليس لديهم ما يشغلهم سوى عشيقاتهم عندما يفرغون من لعبة الكرة القرن [البيلبوكيت]، بينما يطلقون أتباعهم الشريرين في جباية الضرائب الساحقة التي كانت تصل إلى عشرة بالمائة من عائدات الأمة.

وكان معنى ذلك أن دروس التاريخ كانت هي الأخرى مزوّرة إذا أعملنا

فكرة الحقيقة في النهج الجمهوري.

ولست أقدم هنا مظلمة للجمهورية، فكل سجلات تاريخ العالم لم تكن أبداً إلا دفاتر دعاية في خدمة الحكومات.

كان طلاب مدارس المعلمين النضرين الأشاوس يعتقدون إذن بأن الثورة العظمى مثلت حقبة من الحب العذري، وعصرا ذهبيا للشهامة، والأخوة التي بلغت حد الرقة، فهي انفجار الوداعة.

ولست أدري كيف سردوا عليهم –بغير أن يسترعي انتباههم – أن هؤلاء الملائكة العلمانيين بعد عشرين ألف اغتيال أعقبها السرقة، فصلوا رؤوس بعضهم البعض بالمقاصل.

على الناحية الأخرى، حدث بالفعل، أن قسيس قريتي، الذي كان شديد الذكاء، اعتبر، في مروءة لا يمكن رفضها، أن محاكم الهراطقة في زمن سطوة الكنيسة كانت نوعا من مجلس العائلة، فقد ذكر أن الأساقفة قاموا بإحراق بعض اليهود والعلماء وهم يذرفون الدموع عليهم، لكي يؤمّنوا لهم مكاناً في الجنة.

وتلك هي نقطة الضعف في منطقنا، فهو لا يقوم في الأغلب الأعم سوى بتبرير اعتقاداتنا.

◊ ◊ ◊

بيد أن دراسات هؤلاء الطلاب في مدارس المعلمين لم تنحصر في مناوأة اللاهوت، وتكريس التاريخ العلماني. فقد كان هناك عدو ثالث للشعب، لم

يكن موجوداً بالمرة في الماضي، وهو الكحول. فتلك كانت هي الحقبة التي تؤرخ كتابة رواية الهراوة الثقيلة لزولا، ولوحاتها المخيفة التي افترشت حوائط الفصول.

في هذه اللوحات كنت ترى صور الأكباد قليلة الاحمرار غير واضحة المعالم، بسبب انتفاخاتها الخضراء واختناقاتها البنفسجية التي تجعلها شبيهة بدرنة السُّل، ولمزيد من الإمعان في توضيح كارثتها، كان الفنان يرسم في منتصف اللوحة صورة للكبد السليم النضر للمواطن الصالح، الذي يتألق بتناسق أجزائه وطغيان اللون الأحمر عليها، مبرزاً عند المقارنة مدى خطورة المصائب المبيِّنة.

وكان طلاب مدارس المعلمين، الملاحَقون حتى عنابر نومهم بهذه الصور البشعة للأحشاء (بغير أن نسهب في الحديث حول البنكرياس الذي له شكل لولب أرشميدس، والشريان الأورطي المتفسخ بالفتوق) يصيبهم الرعب شيئاً فشيئاً، ليجعل من مجرد رؤيتهم لكأس من الخمر أمراً يشعرهم بالغثيان.

كانت شرفات المقاهي ساعة تناول كؤوس المشهيات، تبدو لهم كأنها صالات لاجتماعات طلاب الانتحار. ذات يوم قلب لهم المناضد واحد من أصدقاء أبي، وكان ثملاً من شرب الماء القراح، بفعل التعصب العلماني. فقد كانوا يعتقدون أن هؤلاء التعساء سيرون في سكرهم الفئران تطير عبر الحوائط، أو يلاقون، في هذيانهم، الزّراف في ساحة ميرابو. وكان أحدهم يقص حكاية عن عازف كمان كان على درجة كبيرة من الألمعية، صغر شأنه وصار عازفاً للماندولين لأن نخاعه الشوكي صار غارقاً في الكوكتيل. لكن ما كانوا أكثر شراسة في كراهيته، هو هذه المشروبات المسماة بالمهضمات، وأنبذ البركة، وأنبذة الأديرة، والخمور الحاصلة على علامة امتياز الملك التي وحَّدت، في ثالوث شنيع، الكنيسة، والكحول، والملكية.

وباستثناء النضال ضد هذه الدواهي الثلاث، كان برنامج دراساتهم ضخماً جداً، ومعنياً على نحو رائع بأن يجعل منهم المعلمين العوام، الذين يحسنون الفهم، بما أنهم كانوا جميعهم تقريباً أبناء فلاحين أو عمال.

فقد كانوا يتلقون ثقافةً عامة، واسعة بالطبع أكثر منها عميقة، لكنها كانت حديثة جداً، ونظرا لأنهم رأوا آباءهم يهلكون في العمل إثنتي عشرة ساعة في اليوم، بالحقول، والسفن، وعلى الصقالات، كانوا يغبطون أنفسهم لقدرهم السعيد، فقد كان بوسعهم التنزه أيام الآحاد، والحصول على إجازات ثلاث مرات في العام، تعيدهم إلى بيوتهم.

في هذه الإجازات، كان الآباء والأجداد، وفي بعض الأحيان الجيران —الذين لم يتعلموا شيئاً سوى الاعتماد على أنفسهم— يأتون إليهم ويطرحون عليهم الأسئلة، والملغزات الصغيرة، التي لم يستطع أحد في القرية أن يحلها. وكانوا يجيبون، ويستمع لهم القدامى في وقار، وهم يهزون رؤوسهم... مما كان يحفزهم خلال ثلاثة أعوام لأن يلتهموا العلم التهاماً، بوصفه ذلك الغذاء النفيس الذي حرم منه أسلافهم، وهو الأمر الذي كان يدعو مدير المدرسة، للمرور على قاعات الدروس أثناء الفسحة، ليتصيّد منهم بعض الطلاب النجباء ويعاقبهم بالحكم عليهم بأن يلعبوا الكرة.

وكان عليهم، في نهاية دراستهم، خوض امتحان الدبلوم العالي، الذي كانت نتيجته معروفة سلفاً.

بعدها، وعلى طريقة شق الثمار الفجة لكي تنضج، كان يتم نثر البذرة الطيّبة في أنحاء الإقليم الأربعة، للنضال فيها ضد الجهل، ولإسباغ المجد على الجمهورية، والاعتداد بعدم خلع القبّعات عند مرور المواكب.

وبعد عدة أعوام من بعثته الرسولية العلمانية، في جليد العزب الجبلية الضائعة، كان المعلم الشاب ينزلق مسافة نصف ميل حتى القرى، حيث يتزوج،

مرورا، بالمعلمة أو موظفة البريد. بعد ذلك كان يمر على عدد من البنادر تلك ذات الشوارع المائلة، التي كانت كل منها تترك في حياته ذكرى ميلاد طفل له، وعند الطفل الثالث أو الرابع، كان يصل إلى المقاطعات الفرعية في السهل، التي يتدرج فيها إلى أن يعمل أخيراً في مركز من المراكز، بعد أن يكون جلده قد تجعد، تحت تاج من الشعر الأبيض. عندئذ كان ينتقل للتدريس في مدرسة من ثمانية أو عشرة فصول، ويدير فصلاً عالياً، وأحياناً فصلاً تكميليًا.

ثم كان يجيء يوم، يحتفلون فيه بانتصاراته الأكاديمية، وبعدها بثلاثة أعوام، «يحصل على تقاعده»، أي أن هذه القاعدة تطبق وتدورالدائرة عليه. عندها، كان يقول وهو يبتسم في سعادة: «أخيرا سأفرغ لزراعة كرنبي !».

ومن ثم ينام، ويرقد رقدته الأخيرة.

ولقد عرفت كثيراً من هؤلاء المعلمين فيما مضى .

كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بجمال مهمتهم، ولهم ثقة وضّاءة في مستقبل الجنس البشري، وكانوا يحتقرون المال والفخفخة، ويرفضون الترقية لكي يدعوا المكان للآخرين. أو لكي يواصلوا إكمال مهمتهم التي بدأوها في قرية محرومة.

أحدهم، وهو صديق عجوز جداً لأبي، تخرج الأول على مدرسة المعلمين، وأجبره صنيعه هذا لأن يبدأ عمله في أحد أحياء مرسيليا، وهو حي يشغي بالقمل وبالبؤساء، لا يجسر أحد على تعريض نفسه فيه للخطر بالسير ليلاً، وظل بهذا الحي من بداية تعيينه وحتى إحالته للتقاعد، أربعين عاماً في نفس الفصل الدراسي، أربعين عاما في نفس المقعد...

ذات مساء سأله أبي :

– هل كنت تحيا بلا طموح طيلة تلك المدة ؟

– أوه لا ! قال، بل كنت طموحاً جداً؟ وأعتقد أنني حققت طموحي !

ضع في حسابك أن سلفي، خلال عشرين عاماً، شهد الحكم بالإعدام على ستة من تلاميذه. أما أنا، فخلال أربعين عاماً، لم يحكم بالإعدام سوى على اثنين من تلاميذي والثالث تم العفو عنه. وكان ذلك أمراً يستحق العناء.

ولعل أكثر الأشياء جدارة بالملاحظة، أن هؤلاء المناوئين للأهوت كانت لهم نفوس المبشرين، فلكي يحيطوا بالإخفاق مهمة السيد القسيس (الذي اعتبرت فضيلته روثاً)، عاشوا هم كالقديسين، وكانت أخلاقهم أكثر جموداً من أخلاق المتطهرين الأوائل. وكان السيد مفتش الأكاديمية هو مطرانهم، ورئيس المدرسة العليا كبيرُ أساقفتهم، وكان بطريركهم هو السيد الوزير، الذي كانوا لا يكتبون له إلا على ورق خاص، وبصيغ متوارثة.

«مثلنا مثل الرهبان» قال أبي، «نحن ندعو للحياة المقبلة، لكننا نعمل من أجل حياة الآخرين» . لأنه قد تخرج هو الآخر بترتيب مرموق، لم تُشتّته حركة التعيينات بعيدا عن مرسيليا، ورست به في أوبان.

٥ ٥ ٥

كانت أوبان بندراً صغيراً من عشرة آلاف نسمة، يعشّشُ في سفح وادي الهوفون، ويقطعه الطريق المغبر الواصل بين مرسيليا وطولون. وفي أوبان، كانوا يصنعون القرميد، والطوب، والجرار، ويأكلون أمعاء الخنزير والبمبار، ويعملون بدباغة الجلود التي لا تتلف، بتعتيقها لسبع سنوات.كما كانوا يصبون تماثيل القديسين الصغيرة التي تباع في الأعياد.

وكان أبي، الذي يدعى جوزيف، في ذلك الوقت، شاباً أسمر، متواضع

الطول، دون أن يكون قصيراً، ذا أنف ضخم بعض الشيء، لكنه كان مستقيماً، مهذّباً لحسن الحظ من الجهتين، بشاربه ونظارته ذات العوينات البيضاوية المحاطة بأطر من الصلب. وكان صوته أجشّ ومرحاً، وشَعره، الأسود المائل للزرقة من النوع الذي يتموج بالطبع في الأيام الممطرة.

وقد التقى في يوم من أيام الآحاد بفتاة تعمل حائكة كانت تدعى أوجستين، ووجدها جميلة بما يجعله يتزوجها من فوره.

ولم أعرف أبداً كيف تعارفا، لأن أحداً لم يتحدث عن هذا الشيء في البيت. أضف إلى ذلك، أنني لم يحدث أن سألتهم في هذا الأمر، فلم يخطر على بالي أبداً لاشبابهم ولا طفولتهم.

لقد كانا أبي وأمي، ومن الأزل وإلى الأبد، كان هو يكبرني بخمس وعشرين عاما، ظلت على ما هي عليه لم تتغير بالمرة، أما عمر أوجستين، فقد كان هو عمري، لأن أمي كانت هي أنا، وقد اعتقدت في طفولتي، أننا ولدنا معا أنا وهي في نفس اليوم. أما عن حياتها الأسبق على هذا الميلاد، فلا أعرف سوى أنها انبهرت بلقائها بهذا الشاب ذي المظهر الجاد، والذي كان يجيد إصابة الهدف في اللعب بالكرات الحديدية، ويَقبض بانتظام أربعة وخمسين فرنكاً شهريا. لذا استغنت عن الخياطة للآخرين، واستقرت في شقة مريحة لا سيما وأنه حصل عليها من المدرسة، ولم يكن يدفع فيها إيجاراً.

في الأشهر التي سبقت مولدي، ولأنها لم تكن قد تخطت التسعة عشر عاماً -ظلت فارقاً بيني وبينها طيلة عمرها- أصابها قلق شديد، وأعلنت وهي تنحب أن طفلها لن يولد أبداً، لأنها شعرت بوضوح أنها لن تعرف كيف تخرجه للحياة. وحاول أبي أن يعيدها لعقلها، لكنها قالت له، وهي مغتاظة : «كلما فكرت في أنك أنت الذي فعلت بي هذا !».

وذابت في الدموع.

ولما بدأ القادم يتحرك في بطنها، كانت تأتيها نوبات من الضحك المجنون، تتخلل نحيبها. وتحت تأثير رعبه من هذا السلوك غير المتزن، طلب أبي نجدة شقيقته الكبرى. وكانت هي التي ربّته. كما كانت (بطبيعة الحال) مديرة مدرسة في (لاسيوتا). وكانت امرأة عازبة.

ورحّبت الشقيقة الكبرى. وقررت أنه يجب في الحال أن تصطحب أمي للإقامة عندها، في المرفأ اللاتيني، وهذا ما تم تنفيذه في اليوم نفسه.

قيل لي إن جوزيف قد سعد جداً بهذا الموضوع، وأنه أفاد من حريته هذه في محاولة الإيقاع بالخبازة التي كان يقوم بضبط حساباتها، وهي حكاية هازلة، لم أقبل بها أبداً.

خلال هذه الأثناء، كانت الأم المقبلة تتنزه على طول الشواطىء، تحت سماء يناير الناعمة، وهي ترقب في البعد أشرعة الصيادين التي ترحل في الساعة الثالثة مساء صوب شمس المغيب. أو تجلس على مقربة من النار التي تنفث اللهب الأزرق المنبعث من احتراق أخشاب الزيتون، وهي تطرز أربطة السليل الحي المقبل، بينما كانت العمة ماري تلف أقمطته، وهي تغني بصوتها الجميل :

فوق الفلوكة التي يرقّصها الموج

والليل ينشر شراعه الأسود الكبير

لقد هدأت وسكن روعها على هذا النحو، بقدر ما كان عزيزها جوزيف يجيء لزيارتها كل يوم سبت، على دراجة الخبازة، آتياً معه بقراميش اللوز، والكريمة، وبكيس من الدقيق الأبيض لصناعة الفطائر والزلابية. مما يؤكد أن الخبازة لم تكن تشكو منه في شيء .

وأحدث التدليل. والراحة الطويلة، وهواء البحر المتوسط الصحّي الرقيق، تحولات في أوجستين الشابة، فقد صار لون بشرتها جميلاً. ويبدو أنها صارت

تُغنّي كل صباح عند استيقاظها.

كل شيء كان يسير إذن على أفضل ما يكون، حتى ذلك الصباح الباكر للثامن والعشرين من فبراير، عندما استيقظت الأم على بعض الآلام.

ونادت من فورها على العمة ماري، التي أعلنت أن لا شيء يدعو للقلق. بما أن الطبيب قد أخبرهما أن موعد الولادة سيكون في نهاية مارس، وأن القادم سيكون بنتاً. ومن ثم أعادت إشعال النار لتغلي بعض الأعشاب. لكن المريضة أصرّت على أن الأطباء لا يفهمون شيئاً، وعلى أنها تريد العودة فوراً لأوبان.

- لابد أن ألد في بيتي ! أنا بحاجة لأن يمسك جوزيف بيدي ! ماري، ماري، هيا بنا نرحل فوراً ! أنا متأكدة أن الطفل يريد الخروج.

وحاولت ماري الرقيقة تهدئتها بالقول وبشراب التّيول. وقالت والمصفاة في يدها : إنه إذا كان الأمر أكيداً بالنسبة لها، ذهبت من فورها لتُعلِم السّماك، الذي يذهب كل يوم لأوبان حوالي الثامنة صباحاً، لكي يأتي بجوزيف بسرعة الريح، على الدرّاجة.

لكن أوجستين أزاحت بيدها فنجان التيول ووضعت وجهها على راحتيها وبكت بدموع غزيرة. عندها، ذهبت العمة ماري وقرعت زجاج نافذة أحد الجيران، كان يمتلك كارتّة وحصاناً صغيراً، ولقد كان ذلك الزمن زمناً مباركاً، إذ كان الناس فيه يخدمون بعضهم البعض، فلم يكن للمرء إلا أن يطلب ما يريده.

وشد الجار جواده للعربة، ولفّت العمةُ أوجستين بالشيلان. ورحنا نخب معاً على الطريق، بينما كانت تصطحبنا من وراء أشجار الصنوبر نصف شمس كبيرة حمراء، كانت تعتلي قمم التلال.

عند وصولنا إلى بيدول. وكانت في منتصف الطريق تماماً، عادت الآلام من جديد، وذعرت العمة بدورها. وضمت بين ذراعيها أمي المتدثرة، وراحت

تعطيها النصائح :

– أوجستين. تحشّمي، فقد كانت هي بعد عذراء.

لكن أوجستين، التي كانت تتفصد عرقاً، فتحت عينيها السوداوين الكبيرتين، وزفرت بشدة وهي تئن.

كنا لحسن الحظ قد بدأنا نفتح الرحم بينما كان الطريق يهبط إلى أوبان. وأرخى الجار فرملة عربته، وهي الكابح الذي كانوا يدعونه بالميكانيكي، وساط الجواد الصغير، الذي لم يكن له مفر من أن يجري تحت وزن حمولته.

ووصلنا بالضبط في الوقت، الذي كانت فيه السيدة نيجرين الداية قد جاءت على عجل لتخليص أمي، التي غرزت أصابعها أخيراً في الأذرع القوية لجوزيف.

◇ ◇ ◇

هذه الحكاية ليست مدهشة إلى الآن، لكن صبرك عليّ دقيقة أيها القارئ، بما أنها ستكون كذلك.

في مطلع القرن الثامن عشر، كانت في أوبان عائلة من التجار شديدة الثراء والقدم، تدعى عائلة بارثولومي. وقد ذاع صيتها حتى أن الملك اضطر ذات يوم لأن يرفعها إلى مرتبة النبالة.

إلا أنه، في ليلة التاسع والعشرين من يناير ١٧١٦، شعرت السيدة بارثولومي، التي كانت صغيرة السن، وتقطن أوبان، ولها زوج يدعى جوزيف «بالآلام الأولى للمخاض». فركبت على عجل عربة بحصان، لكي تذهب لدى

أمها في بيت العائلة، الذي كان أجمل بيت في «كاسيس».

كانت «كاسيس» مرفأ صغيراً للصيد، وضاحية من ضواحي لاسيوتا، وكان نفس الطريق الذي يقود من مرسيليا لأوبان هو طريقهم في ثلاثة أرباع الرحلة.

عبرت السيدة بارثولومي إذن المضائق، ثم مرت بمنعطف بيدول، وهي تئن تحت الأغطية... ثم وصلت إلى كاسيس مغشياً عليها من الألم، وأثناء ما كانوا يضعونها في السرير، وضعت طفلاً.

هذا الطفل من أوبان صار هو نفسه الأب بارثولومي، المؤلف الشهير وصاحب كتاب «رحلة ناسك شاب إلى اليونان»، والذي انتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية في ٥ مارس ١٧٨٩، للمقعد الخامس والعشرين، وهو نفس المقعد الذي كان لي شرف الحصول عليه، في الخامس من مارس في عام آخر تلا.

ويمكن استخلاص نتيجة فريدة، من هذه الطرفة المزدوجة، وهي أن واحدة من الطرائق الممكن اتباعها للحصول على مكان ضمن النخبة اللامعة، أن تكون ابناً لشخص يدعى جوزيف، وأن تحاول أن تولد في صباح باكر من أصابيح الشتاء، في عربة صغيرة بحصان تتأوه مع تأوه أمك، على طريق بيدول.

قليلة هي ذكرياتي عن أوبان، فلم أعش فيها سوى ثلاث سنوات.

وأول ما يحضرني منها في الذاكرة نافورة عالية جداً، تعلوها لبلابات الأفنية، وكانت أمام بيتنا مباشرة، إنها النصب الذي أقامه مواطنو أوبان للأب بارثولومي، الذي كان ينظر إليه كواحد من رجال اليسار، بسبب كتابه «رحلة ناسك شاب»، وهو الكتاب الذي قرأه القليلون، وكان الكثيرون يطلقون عليه، بكل حسن نية: «الشاب الفوضوي» [نظراً لبعض التشابه بين كلمة الناسك AN-ACHARSIS، وكلمة فوضوي ANARCHISTE بالفرنسية – المترجم]. ولقد

كنت أجهل الأب بارثولومي بالطبع، في تلك الحقبة ولكني كنت أنصت بابتهاج لشقشقة النافورة، التي كانت تزقزق مع عصافير الدوري.

تحضرني كذلك بعد النافورة مباشرة، صورة سقف يسقط فوقي بسرعة مدوِّخة، بينما أمي تصرخ مرتعبة : «هنري ! أنت أبله ! هنري ! أنا أمنعك... » ذلك لأن خالي هنري كان قد قذف بي عاليا في الهواء، ولحق بي وأنا أطير، وكنت أصرخ من الفزع، ولكني صحت، عندما استعادتني أمي بين ذراعيها : كمان، كمان !

كان خالي هنري في الثلاثين من عمره، ذا لحية جميلة سمراء، وكان يعمل ميكانيكيا في آلات البخار، التي كان يشتغل في إنشائها بورش فورجيه وشانتييه، وهو العمل الذي كان يحترفه قبله جدي لأمي الذي لم أعرفه أبدا.

ولد جَدي هذا في كوتانس، حوالي ١٨٤٥، وكان يدعى جيوم لانسو. وهو من أصل نورماندي خالص، وفد إلى مرسيليا في جولة له حول فرنسا، وأعجبته جدتي المرسيلية، فظل.

وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره كان قد رزق بثلاثة أطفال، كانت آخرهم وأصغرهم أمي. ولأنه كان يجيد مهنته، ولم يكن يخشى البحر، أرسلوه يوما إلى ريودي جانيرو، لكي يصلح سفينة بخارية تعطلت ماكيناتها، وذهب إلى هذا البلد البدائي بلا تطعيم من أيِّ نوع، فشهد هناك الناس الذين يموتون بالحمىِّ الصفراء، وبشكل أحمق، أصيب بالعدوى، ومات.

ولم يسعف الزمن أطفاله بمعرفته، كذلك جدتي، فلم تكن زوجة له إلا لأربعة أعوام، لذا لم يكن لديها شيء كبير تقصه لنا عنه، اللهم إلا أنه كان عملاقاً وكانت عيونه في زرقة البحر وأسنانه بيضاء، وأن بياضه كان ضارباً للحمرة، وكان يضحك بلا سبب، كالأطفال.

وليست توجد لديَّ حتى صورة فوتوغرافية لجدِّي هذا، وفي بعض الأحيان،

في الأماسي، بالريف، وأمام المدفأة، أحاول أن أكوّن في مخيلتي صورة عنه، لكنني لا أفلح، ولا يجيء. فهو هناك بعد في الأمريكتين.

في هذه اللحظات وأنا وحدي، أرقب النيران، أفكر في جدي ذي الأربعة وعشرين ربيعاً، والذي مات بغير عوينات، وبأسنانه الكاملة، وشعره الذهبي الكثيف، يدهشني أن أكون أنا، هذا العجوز، حفيد شاب صغير السن عملاق من كوتانس.

ذكرى أخرى تحضرني من أوبان. هي ذكرى مباريات لعب الكرات الحديدية تحت لبلابات الميدان الصغير، حيث كان أبي، ضمن البارعين الآخرين، يقفز قفزاته الإعجازية، ويقذف بكمية من الكرات إلى أبعاد غير متخيلة، وسط التصفيق الحاد بعض الأحيان. تلك اللعبة التي كانت تنتهي دائماً بأن يَسُبَّ البارعون بعضهم البعض، بزعم أنه كانت هناك مكيدة التوت بسببها أيديهم، ولكنهم لم يحدث أن تعاركوا أبداً.

٭ ٭ ٭

من أوبان انتقلنا إلى سان – لو، التي كانت قرية كبيرة في ضواحي مرسيليا. وهناك كان يقع أمام المدرسة مباشرة المذبح التابع للبلدية، الذي لم يكن سوى عنبر به جزّاران هائلان يقومان بعملياتهما على الملأ.

وبينما كانت أمي تنشغل بأعمالها المنزلية الصغيرة، كنت أشب على مقعد، أمام نافذة غرفة الطعام، أشاهد اغتيال الأبقار والخنازير بشغف شديد.

إنّي أعتقد أنّ الإنسان متوحش بطبيعته، فالأطفال والبدائيون يقدمون الدليل على ذلك كل يوم. فعندما كانت البقرة المسكينة تتلقّى ضربة البلطة بين

قرنيها، وتخر على ركبتيها، كانت تبهرني فقط قوة الجزار، وانتصار الإنسان على الحيوان.

وكان قتل الخنازير يضحكني حتىً يطفر الدمع من عيني، لأنهم كانوا يجررونها من آذانها، وهي تطلق الصرخات ذات الصرير. لكن العرض الذي كان أكثر إثارة بالنسبة لي. كان عرض ذبح الخراف.

فقد كان الجزار يجزٌ برشاقة حُلقومها، وهو منشغل بإكمال حديثه مع مساعده، بغير أن يولي اهتماماً يذكر لما يفعله. وعندما ينتهي من قطع رقاب ثلاثة أو أربعة خراف، كان يسحبُ الجثث خارجاً لتزفر أنفاسها الأخيرة. ومن ثم، وبواسطة منفاخ، ينفخها بطريقة تدعو للعجب، ليسلخ الجلد عن اللحم، فكنت أتصور أنه يحاول أن يصنع منها بالونات، وكنت أُمنيً نفسي بأن أراها تطير. لكن أمي التي كانت تجيء كل مرة في أهم اللحظات، كانت تجعلني أنزل من مرصدي الذي أرقب منه، وتسمعني لغواً غير مفهوم أثناء تقطيعها اللحم الذي ستطبخ به، حول رقّة الأبقار المسكينة، ولطف الخراف المجعدة، وشراسة هذا الجزار.

وعندما كانت تذهب للسوق، كانت تتركني في طريقها بفصل أبي، الذي كان يُدرِّس القراءة للأطفال في سن السادسة والسابعة، وكنت أظل جالساً هادئاً، في أول صف، وأنا معجب بالمقدرة الأبوية الفائقة. وكان هو يمسك بعصاً من الخيزران، يستخدمها في الإشارة على الحروف والكلمات التي يكتبها على السبورة السوداء، وأحياناً كان ينقر بها عدة مرات رأس تلميذ بليد غير مصغٍ.

ذات صباح، أودعتني أمي مكاني بالفصل، وذهبَت بغير أن تقول شيئاً لأبي، الذي كان في تلك الأثناء يكتب بخط جميل على السبورة: «عاقبت الأمُّ ابنها الصغير، الذي لم يكن مؤدباً.»

وما إن وضع نقطة جميلةً مستديرة في نهاية الجملة، حتى صحت أنا: لا، هذا غير صحيح ! التفت أبي فجأة، ونظر لي في دهشة، وصاح بي : «ماذا تقول؟»

– أمي لم تعاقبني، وما كتبته غير صحيح ! وتقدم أبي ناحيتي :

– ومن قالِ إنك عوقبت ؟

– هذا ما كتبتهَ. وشلّت المفاجأة لسانه للحظة:

– نعم نعم، وأردف، هذا يعني أنك تعرف القراءة ؟

– أجل أعرف.

– سنرى، سنرى... ردّدَ هوَ. وأدار طرف الخيزرانة جهة السبورة السوداء.

– حسنا، اقرأ. وقرأت الجملة بصوت عال.

عندئذ ذهب وأحضر كتاباً في الهجاءة، قرأت له فيه بيسر عدة صفحات... وفيما أظن أنه عاش في ذلك اليوم أكبر فرحة عاشها في حياته، وشعر بأقصى اعتدادٍ مرّ به.

في عودة أمي من السوق، وجدتني جالساً وسط أربعة مدرسين، صرفوا تلاميذهم لحوش المدرسة وراحوا يستمعون لي في هدوء وأنا أتهجّي حكاية القطة الصغيرة... لكنها، بدلاً من أن يعجبها هذا الصنيع، امتقع لونها، ووضعت أكياسها على الأرض، وأغلقت الكتاب بين أيديهم، وحملتني بين ذراعيها وهي تغمغم : يا إلهي... يا إلهي!

وقامت الفراشة، التي كانت واقفة أمام باب الفصل، وكانت امرأة عجوزاً كورسيكية، برسم إشارة الصليب على صدرها، وعرفت فيما بعد أنها هي التي راحت تفتش عن أمي مؤكدة لها أن هؤلاء السادة سوف يتسببون لي في انفجار

بالدماغ.

على طاولة الطعام أكد أبي أن هذه الفكرة لا تعدو أن تكون نوعاً من التطيُّر يدعو للسخرية، وأنني لم يحدث أن ضغط عليَّ أحد، وقد تعلمت القراءة على طريقة الببغاء التي تعلمت الكلام، ولم يكن هو نفسه يتوقع هذا. ولم تقتنع أمي بهذا، وكانت من وقت لآخر تضع يدها الباردة على جبهتي تتحسسها وهي تسألني : هل توجعك رأسك ؟... ولم يكن عندي وجع بالرأس. لكنني لم يعد مسموحاً لي، حتى سن السادسة، بالذهاب للفصل، ولا بأن أفتح كتاباً، خشية أن يصيبني انفجار بالمخ. ولم يطمئن قلبها إلا بعد ذلك بعامين، في نهاية مرحلتي الدراسية الأولى، عندما أخبرتها معلمتي بأنني كنت موهوباً وذا ذاكرةٍ مدهشة، رغم أن عقلي ظل عقل طفل في المهد.

‹› ‹› ‹›

من سان – لو، قفز أبي قفزة شهاب طائر، فقد تخطى الضواحي كلها دفعة واحدة، وعُيِّن – في ظل دهشته الكبرى– معلماً على درجة أساسية بمدرسة (طريق الشارتريِّين)، وهي أكبر مدرسة عامة بمرسيليا.

كان يرأسه مدير متفرغ. وهي الوظيفة التي كانت تشبه وظيفة مراقب عام. وكان بإمكانه الذهاب ومقابلة السيد مفتش الأكاديمية بغير أي استدعاء، وصار عضوا بلجنة امتحانات الشهادة الابتدائية. كما صار يُعيَّن أحياناً عضواً بلجنة امتحانات الشهادة الإعدادية. فضلاً عن أن فراش هذه المدرسة ذكر لأبي المأخوذ، أمامي، أن دزينة المدرسين بمدرسة الشارتريِّين هم في العادة «نخبة الأساتذة»، وأن هؤلاء المختارين، مع نهاية خمس أو ست سنوات من العمل،

يعينون مباشرة مدراء، وفي أغلب الأحيان بمرسيليا نفسها.

كان لتصريح فراش مدرسة طريق الشارتريين هذا وقعٌ على أفراد عائلتي، فلم تكف أمي - الفخورة للغاية - عن إعادة ذكره أمام السيدة ميرسييه والآنسة جويمار، وهي تضيف من عندها أن فراش المدرسة، ربما كان يغالي بعض الشيء، أي أنها لا تميل لتصديقه.

كانت دائماً شاحبة وهشّة، لكنها كانت سعيدة مع جوزيفها وأولادها وماكينة حياكتها الجديدة. هذا الاختراع العجيب الذي مكّنني من مساعدتها في أعمالها. فكنت أركع تحت المنضدة الصغيرة، أمام ذيل ثوبها، وأحرك بيدي لوح البدّال الذي كنت أوقفه بتحكم شديد حسب توجيهاتها.

وكان أخي بول طفلاً صغيراً في الثالثة، أبيض البشرة، مستدير الوجنتين، ذا عينين زرقاوين واسعتين، وقد ورث خصلات الشعر الذهبية لجدّنا لأمي الذي لم نعرفه. كما كان مطرقاً دائماً، لا يبكي أبداً، ويلاعب نفسه وحيداً تحت الطاولة بفلة زجاجة أو بمشط من المعدن ؛ لكن شراهته كانت مدهشة، فكنا نعاني بسببها معه من وقت لآخر مأساة فاقعة، وقد رأيناه ذات مرة يقفز فجأة مترنحاً، فاتحاً ذراعيه، مزرود الوجه، مقبلاً على الموت اختناقاً. وخبّطته أمي المذعورة على ظهره، وأدخلت أصبعها في حلقه، وأخذت ترجرجه وهي ممسكة به من كعبيه، كما فعلت في غابر الأزمان أم أخيل.

وصار جوزيف رائعاً، فقد أصبح يرتدي حلة جديدة زرقاء، تتناسب مع مدرسة الشارتريين، واستبدل إطار عويناته الحديدي المعدني بإطار ذهبي جديد، بعد أن استدارت عدساتها، وأصبح يضع رباط عنق فنّان، ذا قيطان يتدلى بطرفين، لكن هذا الاهتمام كان مسوغه أنّه كان يعمل في شراكة مع زميله أرنو يومي الخميس والأحد صباحاً، في إعداد الخرائط الحائطية، التي كانت دار نشر «فيدال لا بلانش» تدفع فيها بحد أقصى مائة فرنك للخارطة - وأصبحت فيدال لا بلانش - جهةً ينظر إليها لدى العائلة باعتبارها مصدر دخل يعادل

خمسة وعشرين فرنكا شهرياً. وصار اسمها المزدوج مباركاً مرتين.

عندما قاربت سني السادسة. ألحقت بالمدرسة في فصل الأطفال الذي كانت تديره الآنسة جويمار.

كانت الآنسة جويمار امرأة ضخمة ذات شارب لطيف خفيف أسمر، وكانت عندما تتكلم يهتز أنفها، ومع ذلك كنت أجدها قبيحة، لأن بشرتها كانت صفراء كبشرة الصينيات، ولأن عينيها كانتا واسعتين جاحظتين. وكانت تتعامل بصبر في تعليم زملائي الصغار، لكنها لم تكن تشغل نفسها بي، لأنني كنت أقرأ بسهولة، وهو ما كانت تعتقد أنه حدث بسبب حماقة متعمدة من أبي. لكنها كانت تقول في حصة الغناء، أمام كل الفصل: إنني أغني بشكل خاطئ، وإن من الأفضل أن أصمت، وهو ما كنت أفعله باستسلام.

وأثناء ما كانت جماعة الأطفال تنفخ حناجرها وهي تتابع عصا الآنسة خلال الغناء. كنت أجلس صامتاً، مطأطئاً، مبتسماً، مغمض العينين، أقص لنفسي قصصاً، وأجول بخيالي متنزهاً على شاطئ بركة حديقة بورلي، التي كانت تشبه حديقة سان - لو، على طرف متحف برادو مرسيليا.

ففي أيام الخميس والأحد، كانت خالتي روز، الشقيقة الكبرى لأمي، والتي كانت جميلة هي الأخرى، تأتي للغداء معنا، وتصطحبني عقب الطعام، بالترام، إلى هذه الأماكن السحرية. كنا نجد هناك الممرات التي تظللها الأشجار العتيقة، والأدغال الموحشة، والمروج التي تدعوك للتقلب على أعشابها، والحراس الذين يسهرون على حمايتك، والبرك التي يعوم بها البط الطافي.

وكان يَؤُمُّ الحديقة أيضاً في تلك الحقبة، عدد من الناس الذين يتعلمون ركوب الدراجات، والذين كانوا ينظرون متشنجين نظرات ثابتة، وهم يعضون على نواجذهم، ويفلتون من أيدي موجهيم، فيعبرون الممر، متوغلين في الغابة، ثم يعودون ثانية للظهور، حاملين دراجاتهم على أعناقهم، ذلك المشهد الذي لم

يكن يخلو أيضاً من النفع، فقد كان يضحكني حتى تدمع عيناي، لكن خالتي لم تكن لتتركني طويلاً في هذه المنطقة الخطرة. وكانت تجرني بعيداً - ورأسي ملتفت إلى الوراء - نحو ركن هادئ على حافة البركة.

كنا نجلس على دكة، هي دائماً نفس الدكة، أمام أجمة من نبات الغار، بين شجرتين، وتخرج هي أصوافها من حقيبتها لتقوم بعمل التريكو، وأخلو أنا إلى الألعاب التي يقوم بها من هم في سنّي.

كان اهتمامي الرئيسي هو أن أقذف بلقيمات الخبز للبط، وكانت هذه الحيوانات الغبية تعرفني جيداً، فعندما كنت ألوح لها بقطعة الخبز، كانت تعوم بسرعة شديدة، مقبلة نحوي، لأبدأ في توزيع ما بيدي عليها.

وعندما كانت خالتي تشيح بنظرها عني، كنت أوجه أحاديث رقيقة بصوت عذب، للبطات، وأقذفها بالأحجار، بعزم أكيد لقتل إحداها، وكانت هذه الرغبة التي دائماً ما تحبط، تصنع عندي جاذبية شديدة للنزهات، فكنت لا أطيق الصبر في ترام برادو ذي الصرير.

ذات يوم من أيام الآحاد، حدثت لي مفاجأة غير سارة، عندما وجدنا شخصاً يجلس على الدكة التي تعودنا الجلوس عليها. كانت سحنته سحنة عجوز أشقر، وكان له شارب كثيف كستنائي اللون، ورموش صهباء حول عينين كبيرتين زرقاوين، جاحظتين بعض الشيء. وكان على أصداغه بعض الشعيرات البيضاء. ولأنه، علاوة على ذلك، كان يطالع في جريدة بغير صور، فقد أدرجته للتو في عداد المسنّين.

وأرادت خالتي أن تقتادني لموضع آخر نجلس فيه، لكنني رفضت، وعلا صوتي: إنها دِكّتنا، وعلى هذا السيد أن يرحل.

وبرصانة وأدب، وبغير أن يفّوه بكلمة، تحرك السيد إلى الطرف البعيد

للدكة، ساحباً معه قبعته المنفوخة، التي كان موضوعاً عليها زوج من القفازات الجلدية، وهي العلامة القاطعة على الثراء، والتثقُّف.

وجلست خالتي على الطرف الآخر للدكة، مخرجة قماش تطريزها، وهرولت أنا، بكيس لقيماتي الصغير، ناحية حافة البركة.

التقطت قبل كل شيء حجراً جميلاً، كبيراً مفلطحاً، كقطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات، وبسبب سوء الطالع، رمقني أحد الحراس، مما جعلني أخفي الحجر في جيبي، وأشرع في توزيع لقيمات الخبز على البطات، وأنا أداعبها بكلمات المزاح والمودة التي ظللت أرددها وأمامي جمع من البطات مصطف في نصف دائرة.

ونظر لي الحارس – الضجر – بغير اهتمام بهذا العرْض، فقد أدار ببساطة ظهره لي، وسار عدة خطوات. وأخرجت الحجر من جيبي في التو، وغمرني السرور – المشوب ببعض القلق – وأنا أصيب به في الرأس ذكر بط عجوز، فاستدار هذا المستعصي على الطبخ، بدلا من أن ينقلب على ظهره وينزف من منخاره – كما اشتهيت – وسبح بعيداً عن حافة البركة، فارداً جناحيه على طولهما، وهو يبعث بصرخات عالية حانقة. وتوقف على بعد عشرة أمتار من الحافة، ثم انحرف من جديد ناحيتي ؛ وشب ضارباً بجناحيه سطح الماء، وهو يقذفني بكل صيحات السباب التي يعرفها، وسط تشجيع الصرخات المؤلمة لكل أفراد عائلته.

ولم يكن الحارس بعيداً، فأسرعت للاختباء في حجر خالتي. وكانت خالتي، التي لم تر شيئاً، لم تمس كذلك تطريزها، وقد استغرقت في الحديث مع الرجل الجالس على الدكة.

– أوه ! الولد الصغير الظريف ! قال: كم عمرك ؟

– ست سنوات.

– تبدو في السابعة قال وأثنى على هيأتي اللطيفة، وأعلن أن لي عينين جميلتين بالفعل للغاية.

وسارعت هي للقول بأنني لست ابنها، وإنما ابن أختها، وأضافت بأنها ليست متزوجة. مما دفع العجوز الحبُّوب لأن يعطيني قرشين، كي أذهب وأشتري لنفسي بعض المثلجات من البائع الذي كان يقف بعيداً في أول الممر.

تركاني بلا رقابة على غير المعتاد، فانتهزت الفرصة وذهبت ناحية راكبي الدراجات. وصعدت –في حذر– على إحدى الدكك وشاهدت بعض السقطات غير المبررة.

كانت أكثرها إضحاكاً تلك التي حدثت لعجوز في الأربعين من عمره على الأقل، فقد خلع في يديه مقود الدراجة، وهو يقطب ملامحه على نحو هازل، أثناء سقوطه دفعة واحدة على جانب الطريق، متشنجاً بكل قواه طيلة الوقت على المقابض الكاوتشوكية، وأنهضوه، معفراً بالتراب، وقد تمزق سرواله من عند الركبتين، وكان ناقماً هو الآخر كذكر البط العجوز. وتمنيت لو يدب شجار بين البالغين، في اللحظة التي جاءت فيها خالتي والرجل الذي كان معها على الدكة. جذباني بعيداً عن الجمع الصاخب، لأن ساعة العودة قد حانت.

ركب الرجل الترام معنا، فدفع عنا تذاكرنا، على الرغم من الاحتجاجات الشديدة لخالتي، التي كانت، لدهشتي الشديدة، شديدة الاحمرار من الخجل. ولقد فهمت، بعد ذلك بكثير، أنها اعتبرت مثل هذا الفعل تصرف عاهرات، لأن رجلاً لم تكن تعرفه دفع عنا ثلاثة قروش في الترام.

وودعناه في نهاية الخط، وحيانا عدة مرات، ملوحا بقبعته بطول ذراعه. وعند وصولنا لباب منزلنا، أوصتني خالتي – بصوت خفيض– ألا أحدث أحداً أبدا عن هذا اللقاء. ولقّنتني أن هذا السيد هو صاحب حديقة بورلي، الذي إذا

تفوهنا بكلمة واحدة عنه، سوف يعرف بكل تأكيد، وسيمنعنا من العودة للحديقة ثانية. وعندما سألتها عن السبب في هذا، قالت: إنه سر. وحلا لي أن أكون على معرفة بوجود مثل هذا السر. فوعدت بعدم إفشائه، ووفيت بوعدي.

وصارت نزهاتنا في الحديقة متكررة أكثر من ذي قبل، وكان صاحب الحديقة الحبُّوب بانتظارنا دوماً على دكتنا. لكنه كان من الصعب تمييزه من على البعد، إذ كان يغير حلته باستمرار. فيرتدي تارة سترة فاتحة وصديرية زرقاء، وتارة سترة حلة من حلل الصيد على صديرية مطرزة، وفي إحدى المرات رأيته يرتدي سترة طويلة.

أما خالتي روز، فقد صارت ترتدي شالاً من الريش وقبعة من المخمل يعلوها عصفور أزرق بأجنحة مفرودة، كانت تبدو وكأنها تحتضن خصلات شعرها. وصارت تستعير مظلة أمي، أو قفازاتها، أو حقيبتها، وتضحك، ويحمر وجهها، وأصبحت أكثر فأكثر جميلة.

وعندما كنا نصل للحديقة، كان صاحبها يودعني أول الأمر لدى حارس الحمير التي كنت أركبها لعدة ساعات، ثم في العربة التي تجرها أربعة عنزات، ثم عند معلم الزلاقة، وكنت أعتقد أن هذا السخاء لا يكلفه شيئاً، بما أن الحديقة كلها ملكه، لكن ذلك لم يقلل من امتناني الشديد له، وكنت فخوراً بأن لي صديقاً ثرياً على هذا النحو، يكن لي محبة كبيرة إلى هذا الحد.

مرت على ذلك شهور ستة، وبينما كنت ألعب لعبة المسَّاكة مع أخي بول، اختبأت منه أسفل البوفيه الذي أغلقت بابه عليَّ بعد أن أزحت الأطباق. وأثناء ما كان بول يفتش عني في غرفتي، وكنت قد استعدت أنفاسي، سمعت أبي وأمي وخالتي روز يتحدثون في قاعة الطعام. قالت أمي :

– أياً ما كان الأمر، من الواضح أنه عجوز، فهو في السابعة والثلاثين!

– على مهلك قليلاً ! قال أبي، أنا نفسي سأتم الثلاثين في نهاية العام،

وأعتقد أنني مازلت شابا. إن السابعة والثلاثين هي أوج العمر! كما أن روز ليست في الثامنة عشرة.

– أنا في السادسة والعشرين. قالت خالتي روز، وهو يعجبني.

– وما هو عمله بالمحافظة؟

– نائب رئيس مكتب. ومرتبه مائتان وعشرون فرنكاً بالشهر.

– هي هيه! قال أبي.

– كما أن له عائداً بسيطاً يأتيه من عائلته علاوة على ذلك.

– هوه هوه! قال أبي.

– لقد قال لي: إننا يمكننا اعتبار دخله حوالي ثلاثمائة وخمسين فرنكاً بالشهر. وسمعت صفيراً طويلاً. أضاف بعده أبي:

– حسنا يا عزيزتي روز، أنا أهنئك! ولكنّي أتساءل ما إذا كان وسيما؟

– من ناحية الوسامة، قالت أمي، لا! ليس بوسيم.

عندها. دفعت بعنف باب البوفيه، وقفزت على الأرضية الخشبية، وأنا أصرخ: بل هو وسيم! إنه رائع! وجريت إلى المطبخ، الذي أغلقت ورائي بابه بالمفتاح.

في أعقاب هذه الأحداث، جاء صاحب الحديقة إلى منزلنا بصحبة خالتي روز. كان يبتسم ابتسامة عريضة أسفل قبعته المنفوخة، التي كانت سوداء لامعة. وكانت خالتي روز كلها حمراء. فقد كانت ترتدي الأحمر من قمة رأسها لأخمص قدميها، وكانت عيناها الجمليتان تلمعان خلف بيشة زرقاء تتدلّى على طرف قبعة من القش.

كانا قد عادا من رحلة قصيرة، ووزّعا قبلاتهما على الجميع، أجل، فقد

قام صاحب الحديقة. أمام أعيننا المندهشة بتقبيل أمي، ثم أبي ! وفي أعقاب ذلك، أخذني من إبطي، ورفعني، ونظر لي برهة، ثم قال : «أنا منذ الآن أدعى العم جول، لأنني زوج خالتك روز.».

ما كان أكثر مدعاة للدهشة، أنه لم يكن يدعى جول. فقد كان اسمه الحقيقي توماس. لكن خالتي العزيزة التي سمعت حكايات عن أن أهل الريف كانوا يطلقون اسم توماس على مبولتهم، قرّرت أن تطلق عليه اسم جول، وهو ما كان مألوفاً أكثر أن يجري إطلاقه على نفس الشيء. وكانت المخلوقة البريئة تجهل هذا، ولم يجرؤ أحد على إعلامها به، حتى توماس – جول، الذي كان يحبها كثيراً بسبب معارضتها، خاصة عندما تكون على حق.

ولد العم جول وسط مزارع الكروم، بمقاطعة روسيُّون الذهبية، التي يعمل بها عدد هائل من الناس في دحرجة عدد هائل من البراميل. وقد ترك هو الكروم لإخوته، وأصبح مثقف العائلة، لكونه كان مستقيماً، إلا أنه ظل معتداً بأصله القطالوني، وكان لسانه يجري على حروف الراء كما يجري جدول ماء على الحصى.

كنت أقلد كلامه، لكي أضحك أخي بول، وكنا نعتقد فعلاً أن اللّكنة الريفية هي اللّكنة الفرنسية الوحيدة السليمة، بما أنها كانت لكنة أبينا، عضو لجنة امتحانات الشهادة العامة، وأن حروف الراء التي ينطق بها العم جول ليست إلا عبارة عن عاهة خفية.

وصار أبي وهو أصدقاء، لكن العم جول، لكونه أكبر سنا وأكثر ثراء، كان له أحيانا مظهر الشخص الكفيل. كان يحتج من وقت لآخر ضد المدّة الطويلة للإجازات المدرسية.

– أنا أسلّم – كان يقول – بأن الأطفال بحاجة لراحة طويلة بهذا القدر. ولكن خلال هذا الوقت، يمكن تشغيل المعلمين في شيء آخر !

– نعم، نعم ! يقول أبي ساخراً، يمكن أن يأخذوهم ليحلوا، لمدة شهرين، محل موظفي المحافظات الذين أهلكهم العمل الإداري، وأنهكهم النوم الطويل! لكن مناوشاتهم الصداقية لم تكن تتجاوز هذا الحد. فلم تقترب هذه المناوشات أبداً من الموضوع الكبير، اللهم إلا بالتلميحات الخفية، فقد كان العم جول يذهب لحضور القداس بالكنيسة.

وعندما علم أبي – لأن خالتي روز أسرّت بهذا لأمي – أنه يذهب للكنيسة مرتين بالشهر، أصابه الغم الشديد، وأعلن أن هذا «يطفح بالكيل». وعندما توسلت إليه أمي لكي يسلم بهذا النوع من الأشياء، وأن يقلع، في حضور العم جول، عن تهكماته الدائمة على رجال الدين، وأن يكف بصفة خاصة عن أن يُغنّي الأهزوجة الساخرة التي تتهكم على المآثر الإسرائية المعراجية للأب الوقور دوبانلوب:

– أتتصورين أنه سيغضب حقاً ؟

– أنا متأكدة أن ذلك سيمنعه من المجيء عندنا، وسيمنع أختي من زيارتي.

وهز أبي رأسه في حزن، ثم صاح، فجأة، بصوت هائج :

– ها هو ! ها هو عدم التسامح لدى هؤلاء المتعصبين ! هل أمنعه أنا من الذهاب وأكل إلهه كل أحد ؟ هل أمنعك من زيارة أختك المتزوجة من رجل يعتقد بأن خالق الكون ينزل بنفسه كل يوم أحد، في مائة ألف قدح ؟... حسنا سأريه مدى اتساع أفقي. ولن أسخر علي سجيتي. بل ولن أحدثه عن محاكم التفتيش، ولا عن كالاس، ولا عن جان هوس، ولا الآخرين الذين أحرقتهم الكنيسة، ولن أقول شيئاً عن البابوات بورجيا، ولا عن العشيقة جين ! وحتى لو حاول هو أن يعظني بالأفكار الصبيانية لعقيدة أكثر صبيانية من حكايات جدتي العجوز، فسأرد عليه بأدب، مكتفياً بالضحك بهدوء في أكمامي.

لكنه لم يكن له أكمام يضحك فيها. بل لم يضحك بالمرة.

رغم ذلك، وفى بوعده، ولم تضطرب صداقتهما بسبب بعض الكلمات التي كانت تصدر رغماً عنهما من حين لآخر، وهي الكلمات التي كانت زوجتاهما يقظتين لمواراتها في التو بصيحات الدهشة العالية، أو بنوبات الضحك ذات الصرير، اللاتي كن ينفجرن فيها عقب كل سبب من هذا النوع.

وسرعان ما صار العم جول صديقاً كبيراً لي. وكان كثيراً ما يثني على وفائي بالعهد الذي قطعته على نفسي، وعلى احتفاظي بالسر في زمن مواعيد حديقة بورلي ؛ فكان يقول لمن يستمعون إليه إن «هذا الطفل سيكون دبلوماسياً كبيراً» أو «ضابطاً برتبة عالية» (هذه النبوءة، برغم أنها كانت تضع أمام القدر أكثر من خيار واحد، لم تتحقق بعد). وكان يهتم كثيراً بالاطلاع على شهاداتي المدرسية، ويكافئني (أو يواسيني) بالألعاب أو بأكياس الحلوى.

رغم هذا، وبمناسبة نصحي له يوماً بأن يبني بيتا صغيراً في حديقة بورلي الجذابة التي يمتلكها، على أن تكون لهذا البيت شرفة يمكن الإطلال منها لمشاهدة سائقي الدراجات، اعترف لي بأسلوبٍ مازح، بأنه لم يكن أبداً مالكاً لهذه الحديقة.

وأصابني الغم بسبب الفقدان السريع لهذه الممتلكات الجميلة، وندمت على أنني كنت معجباً لزمن طويل كهذا بدجّال من هذه الشاكلة. أضف لهذا، أنه تكشّف لي في ذلك اليوم، أن الأشخاص البالغين يعرفون الكذب أكثر مني، وبدا لي أنني لن أشعر بعد ذلك بالاطمئنان بينهم.

ولكن هذا الكشف، من ناحية أخرى، صار مبرراً لأكاذيبي الخاصة سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فقد جلب الهدوء إلى نفسي، وكنت عندما أضطر للكذب على أبي، ويعترض ضميري بوهن، أقول لنفسي : «مثلي مثل العم جول !»، فكنت أكذب ببراعة، بعينيَّ الساذجتين، وطلعتي البريئة.

فذات يوم، انتقلنا إلى منزل آخر، لأن أبي ارتأى أن شقتنا أصبحت ضيقة علينا، فحصل على بدل سكن وذهبنا لنقطن في شارع تيروس، بدور أرضي كبير، يتبعه دور أسفله، مفتوح من بابه الخلفي على حديقة صغيرة.

ومثّل هذا إحدى النقلات الكبرى في حياتنا، وأثارت أمي، التي كانت مضرّجة من الزهو، انبهار خالتي روز، وهي تشرح لها كيف سترتب من الآن فصاعداً الخزانات والمشاجب الثمانية ؛ أما أنا، فرحت أقص «قصصا» في المدرسة عن هذا «القصر»، ولكي أوضح مدى سعته، أكدت، بغير أن أكذب، أن بمقدورنا فيه أن نلعب الإستغماية ! وقد أثار ترف كهذا ضدي عدداً لا بأس به من الحاسدين، ولكن ظل هناك، لحسن الحظ، عدد من الذين لم يصدقونني، والذين ظلوا أصدقاء أوفياء لي.

ومضى عامان، تمكنت فيهما من تعلم حساب النسبة والتناسب، وعرفت -في سعادة غامرة- بوجود بحيرة تيتاكاكا، ولويس العاشر «المشاكس»، والقواعد المكدرة؛ التي تحكم أسماء المفعول.

وكان أخي بول، هو الآخر، قد انتهى من كتاب مبادئ القراءة، وصار يأوي في المساء بسريره، مع فلسفة مجلة الأقدام المعدنية المصورة.

وحدث أن وُلدت لنا أخت صغيرة، أثناء ما كنا نحن الاثنين مدعوين لدى خالتي روز لمدة يومين، بحجة عمل فطائر عيد القيامة. وكانت تلك الدعوة المنحوسة هي التي منعتني من المراجعة الحاسمة لفرضية مانجيابان الجريئة، التي كانت زميلة لي بالفصل، وكانت تدّعي أن الأطفال يخرجون من سررِ أمهاتهم.

هذه الفكرة بدت لي في مستهل الأمر سخيفة ؛ ولكنني ذات مساء، وبعد اختبار طويل لسرّتي أنا، استنتجت أن لها بالفعل شكل العروة، التي بمنتصفها زرٌ صغير، مما جعلني أستخلص أن عملية فك هذا الزر ممكنة، وأن مانجيابان كانت تقول الحقيقة.

مع ذلك، وبإمعاني التفكير في أن الرجال لا يضعون الأطفال، فلا تعدو علاقتهم بالأبناء والبنات أن هؤلاء يدعونهم: بابا، على حين أن الأطفال يأتون فعليا من الأم، شأنهم في هذا شأن الكلاب والقطط. لم يثبت تفحصي لسرتي شيئا لي، بل على العكس، كان لتحقُّق وجود هذه السرة لدى الذكور ما أضعف بشدة من نفوذ مانجياباان على عقلي. وأصبحت في شك.

على أية حال، وبما أن أختا صغيرة لي قد ولدت، كانت هذه هي اللحظة التي عليّ فيها أن أفتح عيني وأذني، وأن أكتشف السر الكبير.

كان ذلك أثناء عودتنا من عند خالتي روز، وأثناء عبورنا للسهل، تكشّف لي وأنا أسترجع الماضي أمر هام، وهو أن منظر أمي كان قد تغير تغيراً هاماً منذ ثلاثة شهور، فصارت تسير بأكتاف مائلة للخلف كساعي عيد الميلاد. وتذكرت أن بول في هذا الخصوص سألني ذات مساء بقلق : ترى ما الذي تخفيه أمنا تحت مئزرتها ؟

ولم أكن أعرف بماذا أجيبه...

ووجدنا أمنا العزيزة عند عودتنا باسمة، لكنها كانت شاحبة خائرة القوى، راقدة في السرير الكبير، وبجوارها، في مهد، مخلوقة صغيرة مقطبة كانت تَزِنُّ كالمزمار. وقفزت إلى ذهني فرضية مانجياباان، فقبّلت أمي بحنو وأنا أفكر في عذاباتها لحظة فك عروة سرتها.

وبدت لنا المخلوقة الصغيرة في مستهل الأمر شيئاً غريباً. وما ضاعف من ذلك أن أمي كانت تعطيها ثديها، الأمر الذي صدمني وأثار مخاوف بول. فقد قال لي : «إنها تفترسها لنا أربع مرات في اليوم». لكن هذه الصغيرة كانت عندما تتقلّب أو تتلجلج، تذكرنا بقوتنا وحكمتنا. وقد تبنيناها بشكل مطلق.

◇ ◇ ◇

كان العم جول والخالة روز يأتيان عندنا يوم الأحد وأذهب –مع بول– للغداء عندهما كل خميس تقريباً. وكانا يقطنان شقة جميلة، بشارع مينيم ؛ تضاء بالغاز، وكانت الخالة تطبخ في فرن غاز، ولديها خادمة.

ولاحظت يوما بدهشة، أن خالتي العزيزة قد انتفخت بدورها، واستنتجت لتوّي عملية فك عروة قريبة. وتأكد تشخيصي بعد ذلك من الحادثة التي أدهشني بعض ما التقطته أذناي منها، والتي دارت بين أمي والآنسة جويمار.

فأثناء دخول الجزار إلى الركن الداخلي من دكانه ليقطع لنا شريحة بأربعة قروش، قالت الآنسة جويمار بقلق :

– أطفال المسنين، يولدون دائماً بصحة سيئة...

– إن روز لم تتجاور الثامنة والعشرين ! احتجّت أمي.

– بالنسبة للطفل الأول. هذه سن كبيرة، ولا تنسي أن زوجها في الأربعين!

– تسعة وثلاثون، قالت أمي.

– ثمانية وعشرون وتسعة وثلاثون يساويان سبعة وستين ! قالت الآنسة جويمار.

وهزت رأسها، بانشغال وأسى...

وذات مساء، أعلن أبي أن أمي لن ترجع إلى البيت، لأنها ستظل لدى أختها التي ليست على ما يرام. وتعشّينا نحن الأربعة في صمت شديد، ثم ساعدت أبي في تنويم الصغيرة. وكانت تلك عملية شاقة، بسبب وعاء الغسيل، والأقمطة، وخوفنا من أن تتملّخ الصغيرة في أيدينا.

قلت لبول وأنا أخلع جواربي : «إنهم يفكون الآن عروة الخالة روز.» وكان هو يقرأ في سريره أقدامه المعدنية العزيزة عليه، فلم يجبني، لكنني كنت مصراً

على إطلاعه على الألغاز الكبرى، فألححت : «هل تعرف لماذا ؟»

ولم يبد أية حركة، ولاحظت أنه كان نائماً. عندها سحبت كتابَه برفق من بين يديه، وفردت له ركبتيه، وأطفأت المصباح بنفخة واحدة.

في اليوم التالي، الذي كان يوم الخميس، قال أبي لنا :

– هيا أسرعوا ! انهضوا، فسنذهب إلى الخالة روز وستجدون بانتظاركم هناك مفاجأة جميلة !

– أنا، قلت، أعرف مفاجآتك...

– هو هو ! قال، ما الذي تعرفه ؟

– لن أقول لك ما أعرف. ولكنني أؤكد لك أنني فهمت كل شيء.

ونظر لي أبي وهو يبتسم، ولم يلح في السؤال.

ورحلنا نحن الأربعة عبر الشوارع الطويلة. وكانت الأخت الصغيرة غير مهندمة على نحو مضحك، في ثوب زرّرناه لها من الأمام. ولم نكن قد تمكنا من تصفيف شعرها، بسبب جعيرها وصراخها.

وكان القلق الشديد يعصف بي، فقد كنا بصدد طفل أنجبه مُسنُّون، كما قالت الآنسة جويمار، التي لم تحدد شيئاً، سوى أنه سيكون له من العمر ثمانية وستون عاماً. وتخيلت أنه سيكون كائناً لا ينمو، وأن له بالقطع شعراً أبيض، مع لحية بيضاء، كلحية جدي، لكنها لحية أصغر، وأنعم، فهي لحية طفل وليد. لذا فهو لن يكون جميلاً بالطبع، لكنه ربما سيكون قادراً على الكلام من فوره، ويخبرنا من أين أتى، وهو ما سيكون أمراً هاماً.

ولقد أحبطت تماما في كل هذا.

فعندما ذهبنا نقبِّل الخالة في حجرتها. وكان لها مظهر من تم فك عروته

بحق، وإن لم تكن على درجة كبيرة من الشحوب. كانت أمي جالسة على حافة السرير، وفيما بينهما طفل مولود، بلا لحية ولا شارب، ذو سحنة ممتلئة شبيهة بسحنة اللعبة، نائم بهدوء، تحت خصلة من الشعر الأشقر.

– ها هو ابن خالتك ! قالت أمي بصوت خفيض.

وكانت كلتاهما تنظران إليه، متأثرتين، متبهرتين، سعيدتين، بإعجاب زائد عن الحد، وكان العم جول – الذي دخل الغرفة في هذه الأثناء – شديد الإحمرار من الفخر. وأعاد بول، المغموم إليّ مرحي، عندما دفعني إلى غرفة الطعام، التي عثر فيها بالصدفة بإناء الفاكهة الكريستال، على موزات أربع ، أكلناها بتلذذ.

٭ ٭ ٭

ذات مساء جميل من أماسي شهر أبريل، كنت عائداً من المدرسة مع بول وأبي. وكان ذلك اليوم يوم أربعاء، اليوم الذي أعده أجمل أيام الأسبوع، ذلك أن الخميس إجازة، ولأن أيامنا ليست جميلة إلا باعتبار غدها.

وبينما كنا نسير على رصيف شارع تيفولي، قال لي أبي :

– يا غلام، سأكون بحاجة إليك غداً صباحاً.

– بحاجة لي. لماذا ؟

– سترى. إنها مفاجأة !

– هل ستحتاجني أنا أيضا ؟ سأل بول بقلق.

– بالطبع، قال أبي. لكن مارسيل سيأتي معي، وستظل أنت بالبيت، لكي تراقب الشغالة، التي ستنظف الكهف. وهو أمر شديد الأهمية.

– أنا أخاف في العادة، قال بول، من الذهاب للكهف، لكنني لن أخاف من شيء طالما سأكون مع الشغالة.

في اليوم التالي، حوالي الساعة الثامنة، جاء أبي ليوقظني، مقلداً صوت النفير، ثم نزع الغطاء من فوقي ساحباً إياها من طرف سريري.

– لابد أن تكون جاهزاً للخروج خلال نصف ساعة. سأذهب أنا لحلاقة ذقني. ودعكت عيني بقبضتي، وتمطعت، ونهضت.

وكان بول قد اختفى تحت أغطيته، فلم يظهر منه سوى خصلة شعره الذهبية.

كان الخميس يوماً للنظافة الشاملة. وكانت أمي تأخذ أمور النظافة هذه مأخذ الجد الشديد. وبدأت يومي بأن ارتديت ثيابي كلها، ثم تظاهرت بالإغتسال في الماء الجاري، بمعنى أنني قبل وجود جهاز ضجيج البث الإذاعي المسمى بالراديو بعشرين عاماً، ألّفت سيفونية من أصوات الضجة التي توحي بضجة الحمّام.

فتحتُ أولاً حنفية الحوض، ثم وضعتها بحذق في وضع يجعلها تصدر شخيراً من المواسير، فبهذه الطريقة يكون أبواي قد أخذا علما ببدء عملية الاغتسال.

وبينما كان نزول الماء الساخن يحدث في الحوض ضجيجه، كنت أرقبه من مسافة كافية. وبعد أربع أو خمس دقائق، أدرت محبس الصنبور دفعة واحدة، بما جعله يصدر صوتاً، يعلن عن انغلاقه تحت الضغط المفاجئ، بما جعل الصمام يرتجف.

وانتظرت لحظة، صفقت فيها شعري. ثم وضعت الطّست الصاج على البلاط محدثاً صوتاً وأعدت فتح الصنبور - ببطء وبحركة خفيفة للغاية، فأخذ يصفر ويموء ويعيد شخيره المترجرج، فتركت الماء يسيل لمدة دقيقة، مسافة قراءة صفحة من الأقدام المعدنية. وفي اللحظة التي هرب فيها كروكنيول بعد أن شنكل بقدمه رجل البوليس، وكُتب أسفلها «يتبع»، أغلقت الصنبور بعنف.

كان نجاحي كاملاً، فقد حدثت فرقعةُ مزدوجة، تسببت في تموُّج الماسورة. وبعد خبطة ثانية بطست الصاج كنت قد انتهيت، في الموعد المطلوب، من اغتسال مقبول، بغير أن تمسَّني نقطة ماء واحدة.

‹› ‹› ‹›

ووجدت أبي جالسا أمام طاولة غرفة الطعام، يعد النقود؛ وكانت أمي أمامه تشرب قهوتها. كانت ضفائرها السوداء، ذات الانعكاسات الزرقاء، تتدلّى إلى الأرض خلف مقعدها. وكانت القهوة بالحليب المعدَّة لي مصبوبة. فسألتني:غسلت رجليك ؟

ولأنني أعرف أنها تعلق أهمية خاصة على هذه العملية السخيفة، والتي بدت ضرورتها لي أمراً غامضاً (فلا أحد يرى الرِّجلين). أجبت باطمئنان :

- كلتيهما.

- وهل قصصت أظافرك ؟

وبدا لي أن الاعتراف بنسيان الأظافر قد يجر إلى إظهار حقيقة باقي الأشياء.

– لا ، قلت، لم أضطر لهذا. فقد شذبتهما يوم الأحد.

– حسنا، قالت. وبدا عليها الرضا. وارتحت أنا.

وقال لي أبي، بينما كنت أقضم شطيرتي :

– ألا تعرف أين سنذهب ؟... حسنا، سأفهمك. إن أمك بحاجة لبعض الشيء لهواء الريف. لذا فقد استأجرت ڤيللا، مناصفة، مع العم جول، في التلال. سنقضي بها الإجازة الكبيرة.

وأصابني الانبهار.

– وأين هي. هذه الفيللا ؟

– بعيداً عن المدينة، وسط غابات الصنوبر.

– أهي بعيدة للغاية ؟

– نعم. قالت أمي، لابد للوصول إليها من ركوب الترام لآخر الخط، والمشي بعد ذلك على الأقدام عدة ساعات.

– أهي في البرية ؟

– تكاد، قال أبي، إنها بالضبط على حافة الصحراء البرية، الممتدة من أوبان حتى إكس. وهي صحراء حقيقية. وجاء بول، حافيا، يستطلع الأمر ثم سأل :

– هل بهذه الصحراء جِمالْ ؟

– لا ، قال أبي، ليس بها جِمالْ.

– أبها خراتيت ؟

– لا لم أر فيها خراتيت.

وظللت أنا أمطر أبي بالأسئلة حتى قاطعتني أمي : كُل !

كنت قد نسيت شطيرتي بيدي، فدفعت بيدها يدي نحو فمي. ثم استدارت ناحية بول :

أما أنت، فاذهب أولا وضع خُفَّيك، وإلا ستصاب ثانية بالتهاب الزور. هيا، اذهب. وذهب.

فسألت أبي : ستصحبني إذن إلى هناك اليوم ؟

– لا، قال، ليس بعد، فالفيللا بلا أيِّ أثاث، ولا بد من تأثيثها أولاً. ولأن الأثاث الجديد يكلف كثيراً. فسنذهب هذا الصباح لتاجر العاديات عند تقاطع الطرق.

<> <> <>

كان يهوى شراء الأشياء العتيقة من عند تجار العاديات.

كل شهر، عند عودته بعد قبض مرتبه من العمدية، كان يأتي معه ببعض الأشياء العجيبة، كـمامَةً مُتفزِّرة (بنصف فرنك)، فرجار مكسور (بفرنك ونصف)، قوس كمان كبير كونترباص (بفرنك)، مبضع جراح (بفرنكين)، منظار بحري مكبر صار لا يظهر الأشياء إلا بالمقلوب (٣ فرنك)، سكينة سلخ (٢ فرنك)، بوق صيد، مع مبسم نفير (٣ فرنك)، بخلاف الأشياء الغامضة، التي لا يستطيع إنسان أن يجد لها استعمالاً على الإطلاق، والتي تتناثر في كل مكان بالمنزل تقريباً.

وكانت هذه المناسبة الشهرية، بالنسبة لي ولبول، عيداً حقيقياً. لكن أمي لم تكن تشاركنا بهجتنا. كانت تنظر، متحيرة، إلى قوس جزر فيجي،أو إلى جهاز

قياس الارتفاعات الذي كان عقربه قد ارتفع إلى علامة أربعة آلاف متر (ربما في أعقاب صعود لقمة مونبلان،أو سقوط من على سلم) ولم يعد يتحرك ثانية.

طيب، تقول بحزم : «أهم شيء ألا يلمس الأطفال هذه الأشياء !» وتهرع إلى المطبخ. وتعود بالكحول، وماء الكلور. وبلورات الصودا، وتدعك جيداً هذا الحطام.

لا بد من القول إنه في تلك الحقبة، كانت معرفة الميكروبات أمراً حديثاً، فقد كان باستير العظيم قد انتهى بالكاد من اكتشافها، وكانت هي تتخيلها علي هيئة نمور صغيرة، مستعدة لافتراسنا من داخلنا.

وأثناء ما كانت ترج بوق الصيد، الذي ملأته بماء الكلور، قالت، في حالة من الفجيعة : إني أتساءل، أيها المسكين جوزيف، ما الذي تنوي فعله بهذه القذارة ؟

وبلهجة المنتصر، لم يزد المسكين جوزيف عن قوله : بثلاثة فرنكات !

وفهمت فيما بعد، أن الأمر الذي كان يغريه بالشراء، ليس الشيء في ذاته ولكن ثمنه.

– حسنا، هذه فرنكات ثلاثة أهدرها التبذير !

– لكن يا عزيزتي، لو أنك أردت أن تصنعي بوق الصيد هذا، فكري في ثمن النحاس، فكري في الآلات والأدوات الخاصة التي ستحتاجينها لتصنيعه، وفكري في مئات الساعات من العمل الضروري لتحويل النحاس لبوق صيد...

وترفع أمي كتفيها، ويبدو عليها أنها لم تفكر أبداً من قبل في صناعة بوق صيد، أو صناعة أي شيء آخر. عندها، يقول أبي، في تواضع :

– أنت لا تحسبين حساب أن هذه الآلة، التي ربما كانت لا نفع لها في ذاتها، هي منجم حقيقي في الوقت ذاته ! فكري للحظة، فلو أنني نشرت طرفها

هذا، لحصلت على جهاز للسمع، أو مُكبِّر للصوت، أو قُمع، أو مكبر صوت للفونوغراف، أما بقية الأنبوب، فإذا ما ثنيته بشكل حلزوني، سيكون ماسورة أنبيق. وبإمكاني أيضاً أن أقوِّمه لأصنع منه أنبوب نفخ للزجاج، أو ماسورة مياه نحاسية، ولاحظي جيداً ! أنني إذا نشرته شرائح رفيعة سيكون لديك عشرون دستة من حلقات الستائر ؛ وإذا ثقبته مائة ثقب صغير سيكون لدينا رشاش ماء، إذا ماضبطته وركبته على حنفية الحوض، سيكون مسدس ماء يفتح ويقفل.

هكذا، وأمام أبنائه المنبهرين، وزوجته العزيزة التي أصابتها الفجيعة، يقوم بتحويل الآلة التي لا فائدة لها إلى ألف من الأشياء الأخرى التي لا فائدة لها كذلك، لكنها عديدة.

لذا، ففي ذلك الصباح، عندما ذكر أبي أمامها كلمة «تاجر العاديات»، هزت رأسها عدة مرات، وبدا عليها القلق. لكنها لم توضح ما برأسها وقالت لي فحسب : «أمعك منديل ؟»

وكان معي منديل بالتأكيد، ظل نظيفاً في جيبي مدة ثمانية أيام. فبالنسبة لي، أنا الذي أعرف كيف أخرج من أنفي، بأظفر (أصبعي السبابة)، المواد التي تصفر فيها وتضايق تنفسي، كان استخدام المنديل يبدو لي نوعاً من الخضوع للتطيُّر الأبوي.

وقد حدث لي مرات أن استخدمت المنديل لتلميع حذائي، أو لتنظيف درج مكتبي بالفصل، لكن فكرة أن أنفخ مخاطي في هذا النسيج الرقيق، ثم أطبقه بما فيه وأضعه ثانية في جيبي، كانت تبدو لي سخيفة ومقرفة. ومع ذلك، وكالأطفال الذين كبروا على تلقي التعليم من آبائهم، لكنهم مضطرون لاحترام تهوُّساتهم التي لا أمل في شفائها، لعدم تكديرهم، سحبت منديلي من جيبي وأنا أخفي في نفس الوقت كفي المبقعة ببقعة كبيرة من الحبر، ولوحت به كما يلوح الناس في محطات السفر، أمام أمي التي اطمأنت، وتبعت أبي إلى الشارع.

في الشارع، وإلى جوار الرصيف، رأيت عربة اليد الصغيرة التي استعارها أبي من الجار، مكتوب على جانبها بحروف غليظة سوداء :

بيرجونيا

فحم وأخشاب

ودخل أبي بين ذراعي العربة، فجرّته للوراء.

– أنا بحاجة إليك، قال لي، لكي تمسك بالفرملة عند نزولنا بشارع تيفولي. ونظرت بعيداً إلى شارع تيفولي الذي كان صاعداً أمامي نحو السماء بانحدار شديد.

– لكن يا أبي، قلت، إن شارع تيفولي، صاعد !

– نعم، قال لي، الآن، هو صاعد. لكنني على يقين تقريباً أنه أثناء العودة، سيهبط كما أننا سنكون محمّلين في العودة. أما الآن فاجلس أنت على العربة. واتخذت مكاني في منتصف سطح العربة لكي تحفظ توازنها.

كانت أمي تنظر إلينا، من خلف شبكة النافذة الحديدية المقوسة، ونحن نرحل : أهم شيء، قالت، احترسوا من الترام.

مما جعل أبي لكي يعبر عن ثقته، يصهل بفرح، ويرفس برجليه رفستين صغيرتين، ثم يعدو نحو المغامرة.

وتوقفنا بنهاية شارع المادلين، أمام دكان صغير مغبّرة، كانت تفترش بضائعها ابتداء من الرصيف، الذي كان مزدحماً بالأثاثات الغريبة، المرصوصة حول مضخة إطفاء حرائق قديمة كان معلقاً عليها هي الأخرى كمان قديم.

كان صاحب هذه التجارة رجل طويل، نحيف، شديد القذارة. له لحية رمادية، وخصلات شعر كخصلات الشعراء الغنائيين، تتدلى أسفل قبعة فنان كبيرة كان يضعها على رأسه. وكانت له هيأة المكتئب، وهو يدخن غليونه

الفخاري.

كان أبي قد جاء إليه قبل ذلك، وتخير بعض الأثاث، الذي كان عبارة عن دولاب صغير، ومنضدتين، وبعض حزم من قطع الأخشاب المقصوصة، التي كما قال تاجر العاديات، يمكن بها صناعة ست كراس، كما كان قد تخير أيضا كنبة صغيرة تمزقت أحشاؤها كحصان مصارع الثيران، وثلاث مساند متفزِّرة، لم يعد بها سوى نصف حشوها، وخزانة فقدت أرففها، وقلة فخارية شبيهة بالديك على نحو واضح، وأوانٍ منزلية عديدة بدا عليها الصدأ.

وساعدنا تاجر العاديات في تحميل كل هذه البضاعة على عربة اليد، التي كانت تبرك على عكاكيزها، كما تفعل الحمير في الربيع. وتم تستيف كل هذا وربطه بالحبال، التي تنسَّلت من كثرة الاستعمال. وجاءت ساعة الحساب. نظر تاجر العاديات إلى أبي، بنوع من التأمل وقال :

– الحساب خمسون فرنكا.

– هوه هوه ! قال أبي، هذا كثير جداً !

– كثير، لكن الأثاث جميل، قال تاجر العاديات، كما أن الدولاب له تاريخ. وأشار بأصبعه إلى هذه الأنقاض المسوَّسَة.

– على عيني وعلى راسي، له تاريخ بالطبع، لأنه قديم !

– واتخذ تاجر العاديات منظر المتأفف وقال :

– هل أنت ممن يحبون الأثاث الحديث ؟

– في اعتقادي، قال أبي، إنني لا أشتري هذا لمتحف، بل من أجل استعماله.

وبدا العجوز تعساً لهذا الاعتراف.

– حسنا، قال، ألا تهتم ما إذا كانت قطعة الأثاث هذه قد شهدت يوما الملكة ماري أنطوانيت في قميص نومها ؟

– بالنظر لحالتها، قال أبي، لن يدهشني أن تكون شهدت الملك هيرود في سراويله الداخلية !

– أنا أمنعك من الاستطراد في الحديث بهذا الشكل. قال تاجر العاديات، وسأضيف لمعلوماتك شيئا، فالملك هيرود ربما كانت لديه سراويل داخلية، لكنه لم يكن لديه دولاب ! اللهم فقط بعض صناديق بأقفال ذهبية، أو أنواع من الحلل الخشبية. أقول لك هذا لأني أمين.

– أشكرك، قال أبي، ولأنك أمين، سأدفع لك في هذه الأشياء خمسة وثلاثين فرنكا.

وراح بائع العاديات ينظر لنا الواحد بعد الآخر، هازا رأسه بابتسامة متألمة، ثم أعلن.

– هذا غير ممكن، لأنني مدين بخمسين فرنك لصاحب الدكان الذي سيجيء لتحصيلها ظهراً.

– إذن، قال أبي في تبجح، لو أنك كنت مدينا له بمائة فرنك، لكنت طلبت مني المائة.

– طبعاً ! وإلا فمن أين تتصور أنني أحصل عليها إن لم يكن من الزبون ؟ لاحظ أيضا أنني لو كنت مديناً له بأربعين فرنك، لطالبتك بأربعين، ولو كنت مدينا بثلاثين لبعت لك بثلاثين.

– في هذه الحالة، قال أبي، يكون من الأفضل لي أن أعود غداً، بعد أن تدفع له ولا تكون مديناً بشيء...

– لم يعد الأمر ممكنا الآن ! صاح تاجر العاديات. فالساعة تمام الحادية عشرة والنصف. وأنت وضعت نفسك في هذا الموقف. وليس لك حق التملُّص. فضلاً عن ذلك، أعترف لك بأنك لم تكن محظوظاً بمجيئك اليوم. ولكن لكل إنسان حظه في هذه الحياة ! أنت مثلاً شاب نضير، مستقيم القامة كالألفْ، ولك عينان رائعتان، وبما أن في هذا العالم بشراً مصابين بالقتَب والعَوَر، فلا حق لك في التشكي، خمسون فرنكاً!

– حسنا، قال أبي. في هذه الحالة، سنعيد إنزال هذه الحطام من العربة، ونشتري من مكان آخر، يا ولد، فك الحبال !

وأمسك بي تاجر العاديات من ذراعي وهو يصيح : إنتظر !

ونظر لأبي في تعاسة وانكسار، وهز رأسه، وقال لي : «كم هو عنيف !» ثم تقدم ناحيته، وتحدث بمهابة :

– بخصوص السعر، لن نعيد الحديث فيه، خمسون فرنكا ؛ ومستحيل بالنسبة لي أن أخفضه. ولكن ربما كان بمقدورنا أن نزيد البضاعة.

ودخل إلى المحل، وغمز أبي لي بعينه في انتصار، وتبعناه.

كانت بداخل المحل متاريس من الدواليب، ومرايا بِرْصاءَ، وخوذات، وساعات حائط، وحيوانات مصبَّرة. فأنفذ الرجل ذراعه في هذه الحفائر وأخرج منها بعض الأشياء.

– أولا، قال. بما أنك تحب الأثاث الحديث، أعطيك فوق البيعة خزانة السرير الصغيرة هذه وهي من الصاج المدهون، وهذا الصنبور المطلي طراز منقار البجعة. ولن تقول لي إنها أشياء غير حديثة ! ثانيا، أعطيك هذه البندقية العربية الدمشقية، التي ليست بندقية رصاص وإنما بندقية خردق. انظر لطول ماسورتها العجيب ! الذي يجعلها كأنها صنارة صيد. وانظر، أضاف بصوت خفيض، الرموز المكتوبة عليها (بالأحرف العربية) والمحفورة في خشبها !

وأرانا علامات كانت تبدو كأنها حفنة من الفواصل، وهمس :

– عين. وقاف. هل خمنت ؟

– هل تريد إقناعي، قال أبي، أن هذه البندقية كانت للأمير عبد القادر؟

– أنا لا أقنعك بشيء، قال تاجر العاديات في ثقة. وتصرف بطريقة تضفي مزيداً من التأكيد، واللبيب بالإشارة يفهم. وأضاف، أعطيك فوق ذلك عاكس الإشارات الضوئية هذا، وهو من النحاس المقطّع، ومظلة الراعي هذه (التي ستكون كالجديدة إذا ما غيرّت لها قماشها فحسب)، وهذه الطبلة الكبيرة من ساحل العاج –التي تعد من المقتنيات– ومكواة الحائك هذه. فهل أنت مبسوط ؟

– تماماً هكذا، قال أبي، ولكني أريد أيضا قفص الفراخ القديم هذا.

– هي هيه ! قال تاجر العاديات، هو صحيح قديم، لكنه يمكن استعماله كأنه جديد. على العموم، ومن أجل خاطرك، سأعطيك إياه.

ومد أبي إليه ورقة بنفسجية بخمسين فرنكاً، فأخذها باهتمام، مع تحية من رأسه.

وفي النهاية، وبعد أن انتهينا من تستيف غنيمتنا بالحبال، وكان هو يعيد إشعال غليونه، قال فجأة :

– إن لديّ رغبة في أن أعطيك سريراً هدية للصغير !

ودخل دكانه، واختفى في قلعة الدّواليب ثم عاود الظهور، منتصراً حاملاً على طول ذراعيه إطاراً صنع من أربعة ألواح خشبية قديمة مشبوكة في بعضها بالكاد، بما جعلها تتخذ شكل المعين لا شكل المستطيل. وكانت معلّقة على طرف واحد من هذه الألواح، بدبابيس السجاد، قطعة مستطيلة من الخيش، ذات أطراف منسّلة، تتدلى كراية ترمز للبؤس.

– في الحقيقة، قال، ينقصه إطار آخر شبيه بهذا يوضع خلف خلاف معه. وسترون طرفةً. بأربعة أطراف خشبية، وينام الصغير كالباشا !

وعقد ذراعيه على صدره، وأمال رأسه برقةٍ إلى جانب، وبدا كما لو أنه ينعس بابتسامة هادئة.

كنا في غاية الامتنان له ؛ وبدا عليه التأثر، وهو يصيح رافعا لنا يده اليمنى التي أظهرت كفاً سوداء :

– انتظروا ! لدي كذلك مفاجأة لكم ! ودخل دكانه وهو يعدو. لكن أبي الذي لم يكن له في العمل اليدوي، تحرك باندفاعة ثم نزل بحركة سليمة على طريق المادلين، فيما عاود العجوز الكريم ظهوره على حافة الرصيف، ملوحا بطول ذراعه بعلم كبير من أعلام الصليب الأحمر، وجدنا أنه من غير المجدي العودة للحصول عليه.

◊ ◊ ◊

عندما لمحت أمي، التي كانت في انتظارنا بالنافذة، وصول هذه الحمولة، غادرت الشباك لتوّها وخرجت إلى العتبة.

– جوزيف، قالت، أنت لن تدخل لي كالعادة كل هذه القاذورات في البيت، أليس كذلك ؟

– هذه القذارة، قال أبي، ستكون قواماً لأثاث من الطراز التقليدي، الذي لن تضجري أبداً من الاستمتاع بمرآه. أمهلينا فقط بعض الوقت للشغل فيه! فقد أعددت خططي وأعرف ما الذي سأفعله.

وأمالت أمي رأسها وتنهدت، بينما أسرع بول الصغير ليساعد في إنزال الحمولة.

ونقلنا كل الأشياء إلى الكهف، الذي قرر أبي أن نقيم فيه ورشتنا.

وبدأ عملنا بسرقة ملعقة من الحديد المطروق، من درج المطبخ، وهو العمل الذي قمت به أنا. وقد بحثت أمي بعد ذلك عن هذه الملعقة زمناً طويلاً، وعثرت فيها عدة مرات، لكنها لم تتعرف عليها أبداً، لأننا طرقناها بضربات المطرقة فأصبحت مسطرينا.

وبنفس هذا الأسلوب، الجدير بروبنسون كروزو دققنا على حائط الكهف خابورين من الحديد، ربطنا فيهما تزجة شغل بأربعة مسامير. كانت تؤمن ثباتها، وتعدها على هذا النحو للعمل.

وثبتنا في التزجة منجلة كانت تصرُّ صريراً عند حركتها، فهدّأنا من ذلك الصرير بتزييت أجزائها، ثم رتبنا العدّة، التي كانت عبارة عن منشار، ومطرقة، وزوج من الكماشات، ومسامير من أطوال مختلفة، معوجة من أثر استعمالها السابق، وبراغي، ومفك، وفأرة، ومقص خشب.

وأولعت بهذه الكنوز، هذه الآلات الصغيرة، التي لم يتجاسر بول الصغير على لمسها، فقد كان يعتقد بالشراسة المؤذية للأدوات الحادة والقاطعة، ولا يرى فرقاً كبيراً بين المنشار وفك التمساح. ومع هذا، استوعب تماماً أن أشياء كبرى يجري إعدادها، فراح يعدو فجأة، وأحضر لنا وهو يبتسم ابتسامة جميلة، لفتين من الخيط، ومقصات ورق صغيرة، وصامولة كان قد عثر عليها بالشارع.

وتلقينا هذه الأدوات الإضافية بحالة طاغية من الابتهاج والعرفان، فيما احمرّ بول من الاعتداد. وأجلسه أبي على طاولة صغيرة من الخشب، وأمره ألا ينزل من عليها.

– سنحتاجك بشدة، قال له، لأن العدد خبيثة للغاية، ما إن نبحث عن إحداها، حتى تفهم، وتختفي...

– لأنها تخاف ضربات المطرقة ! قال بول.

– بالطبع، قال أبي، لذا فأنت، من مكانك على هذه الطاولة ستراقبها لنا جيداً، بما يجعلنا نكسب الكثير من الوقت.

‹› ‹› ‹›

كل مساء، في السادسة، كنت أخرج من المدرسة معه، فنعود للمنزل ونحن نتحدث في العمل، ونشتري في طريقنا الأشياء الصغيرة الناقصة : غراء النجار، علبة دهان، صنفرة خشب. وكنا نتوقف غالب الأحيان عند تاجر العاديات، الذي أصبح صديقاً لنا. فكنت أدخل بحرية وكر الجن هذا، بعد أن صار مسموحاً لي بالتجوُّل في كل المكان. كان يوجد كل شيء في هذا الدكان، ومع هذا، لم تكن تجد فيه أبداً ما تبحث عنه. كنا نجيء بهدف شراء مقشة ونمضي بقمع طلمبة. أو نشّابة، ذات النشّابة – بحسب قول صديقنا– التي قتلت الأمير بونابرت. وعند عودتنا للمنزل، كانت أمي، حسب التقليد المتبع، تجردنا من هذه الغنيمة، وتغسل لي يدي بسرعة شديدة، وتدعك أسلابنا بماء الكلور. وفي أعقاب هذا الغسيل العلاجي، كنت أهبط درج الكهف، وألحق بأبي، الذي يكون بصحبة بول في الورشة.

كانت الورشة تضاء بمصباح نفط، مصنوع من النحاس، المبعّج قليلاً، وله عدّة شبيهة برأس الماتادور، أي أن الفتيل الغاطس فيه، كان طرفه يخرج من

أنبوب نحاسي، ويصعد إلى زهرة صغيرة من المعدن تجعل اللهب يتفتح في تويج، وكان هذا التويْج كبيراً نوعاً ما، ولكي يضيء بكفاءة، فإن غطاء المصباح الزجاجي، الذي يسميه الإنجليز بإحكام «بالمدفأة» كان منتفخاً من قاعدته بما يجعله ذا تأثير كبير في مضاعفة الضوء، في الوقت نفسه الذي كان يجعل من هذا المصباح آخر صيحة من صيحات الحداثة.

وبدأنا في عمل التوافيق والتباديل بين أجزاء الكراسي، وكان ذلك أمراً يشبه لعبة البازل، بقدر ما كان من الصعب إدخال القوائم في مشقبيات القواعد، كما أن هذه القوائم لم تكن جميعاً بنفس الطول.

وذهبنا نردُّها لتاجر العاديات، الذي تظاهر أول الأمر بالاندهاش، ثم أعطانا حزمة من القوائم، حاول أن يقرنها كهدية بأن يبيعنا معها زوجاً من ركاب الخيل المكسيكية.

وبالاستعانة بالنجدة العظمى للغراء، الذي نقعت أنا شرائحه في الماء الفاتر، نهضت الكراسي الست ثانيـة، ثم دهنت بالورنيش، ونسـجت أمي بالخيـوط الغليظة راحات مقاعدها، وأحاطت، بمهارة متوقعة، أطرها بحبال مضفرة حمراء.

وصفّ أبي الكراسي حول طاولة غرفة الطعام، وتأملها طويلا، ثم أعلن أن هذه الأثاثات المزخرفة، تساوي على الأقل خمسة أضعاف الثمن الذي دفعه، وأثنينا، مرة ثانية، على الأشياء العجيبة التي عرف كيف يكتشفها لدى تاجر العاديات.

ثم جاء دور الدولاب الصغير، الذي كانت أدراجه محشورة بما جعل من الضروري فكه وتركيبه من جديد، بالاستعمال الصبور للفأرة.

هذا العمل الذي لم يستمر لأكثر من ثلاثة شهور، يحتل مع ذلك في

ذاكرتي، مكاناً محترماً، فقد اكتشفت فيه، على ضوء مصباح بوز الماتادور، ذكاء يدي، والكفاءة العجيبة للعدد البسيطة.

وفي صباح يوم من أيام الخميس، رصصنا على طول طرقة المنزل، أثاث الإجازة الكبيرة. وتمت دعوة العم جول، كمعجب متوقّع بهذا العمل، وحَضَر صديقنا تاجر العاديات بصفة خبير.

وأعجب العم، وتفحص تاجر العاديات القطع، فأثنى على المشقبيات، وامتدح إحكام العاشق والمعشوق، ووجد أن اللصق بالغراء محكم، وبما أن الطقم في مجموعه لم يكن يشبه أي شيء، أعلن أنه يعد من النمط «الريفي التقليدي»، وأكّد العم جول على ذلك بهز رأسه على طريقة الأطباء.

كانت أمي منبهرة بجمال هذه الأثاثات، وبحسب نبوءة أبي، لم تتمكن من أن ترفع عينيها من عليها. وقد أحببت أكثر من أي شيء آخر طاولة صغيرة مستديرة ذات ثلاثة أرجل، تم طلاؤها بعنايتي ثلاث مرات بالورنيش الذي له لون الخشب. وكانت فعلاً طاولة جميلة المنظر، لكنه كان من المستحسن النظر إليها عن لمسها، لأنه بوضع الأيدي مفرودة فوقها، كان يمكن تهييجها للانتقال إلى العالم الآخر، كما يفعل الوسطاء الروحيون مع الطاولات. وأعتقد أن الجميع لاحظوا هذا المحذور، لكن أحداً لم يفه بكلمة كي لا يخدشوا انتصارنا بعمل هذا المعرض.

وقد سعدت فضلاً عن ذلك فيما بعد بأن أستنتج أن خطأ صغيراً يمكن أن يكون له فوائد عظمى، فهذه الطاولة، التي تم وضعها بعد ذلك في ركن مضاء جيداً، بوصفها قطعة أثاث ثمينة، كانت تجذب إليها الذباب بما يسبب حالة من الهدوء والنظافة بغرفة طعام الإجازة، في العام الأول على الأقل.

وأخيراً، وفي اللحظة التي كان يتأهب فيها للرحيل، فتح الخبير حقيبة

عجوزا كان يحملها، وأخرج غليوناً ضخماً حفرت رأسه على جذع شجرة، بحجم رأسي، وأهداه لأبي كطرفة نادرة. ثم قدم لأمي عقداً من الأصداف لبسته ذات يوم الملكة رانافالو، واعتذر بأنه لم يكن لديه علم بحضور العم جول -الذي لم يكن ليخسر شيئاً إذا انتظر- والذي استطاع بعون من السماء الحصول على عطلة هذا اليوم.

‹› ‹› ‹›

ومرت الأيام الخمسة عشر الأولى من يوليو طويلة جداً. فقد ظلت الأثاثات في المطْرقة. وظللنا نحن في المدرسة، التي لم نكن نفعل فيها شيئا يذكر.

كان المدرسون يقرأون لنا قصص أندرسون، أو ألفونس دوديه، ثم نذهب للّعب في الفناء معظم النهار. وكنا نواصل بلا اقتناع هذه الألعاب المدرسية، التي كانت قيمتها تتضاءل ولم تعد محل سرور، بسبب الاقتراب البطيء والمؤكد، للألعاب الخالدة للإجازة الكبيرة.

كنت أردد لنفسي بلا توقف هذه الكلمات السحرية : الفيللا، غابات الصنوبر، التلال، صراصير الحقل. وقد كان بعض من صراصير الحقل على أطراف أشجار حديقة المدرسة. لكنني لم أرغب أبداً في الاقتراب منها. فقد وعدني أبي بآلاف منها، في متناول اليد دائماً تقريباً... لذا فعند سماعي لهذه المنشدات الضالات التي تصرّ في آذاننا، ولا نلمحها على أعالي الأشجار، كنت أقول لنفسي -بلا أي شاعرية- «أنت، أيتها العجوز، عند ذهابنا إلى التلال، سأضع لك قشة في مؤخرتك» وتلك كانت رقة الملائكة الصغار في سن الثامنة.

وذات مساء، حضر العم جول والخالة روز للعشاء بمنزلنا. فكان عشاء ولقاء حوار، للتحضير للرحيل الكبير، الذي سيتم في اليوم التالي.

أعلن العم جول، الذي كان سعيداً بقدرته التنظيمية، أنه أولاً، وبسبب حالة الطرق، لم يكن من السهل إيجار عربة مناسبة، فضلاً عن أن عربة كهذه كانت ستكلف الكثير، —حوالي العشرين فرنكا ربما !

لذا فقد استأجر عربتين: عربة نقل عفش صغيرة، لنقل عفشه الخاص، وزوجته وطفله، بمبلغ سبعة فرنكات ونصف. وكان متضمنا في هذا السعر أجر عامل أثاث يعمل في خدمتنا طوال اليوم.

كما وجد لنا نحن فلاحاً، يدعى فرانسوا، لديه مزرعة على بعد بضع مئات من الأمتار عن الفيللا. وكان هذا الفرانسوا يأتي مرتين أسبوعياً لبيع فاكهته بسوق مرسيليا. فاتفق معه على أن ينقل أثاثنا، عند عودته للمزرعة، بسعر معقول هو أربعة فرنكات، وأسعد هذا الاتفاق أبي، لكن بول تساءل:

– ماذا عنا نحن، هل سنركب معه عربته ؟

– أنتم، قال المنظم، ستركبون الترام حتى الباراس، ومن هناك سترافقون فلاحكم سيراً على الأقدام. سيكون لأوجستين مكان في العربة، وسيتبع الرجال الثلاثة الفلاح سيراً على الأقدام.

وقبل الرجال الثلاثة هذه الفكرة باغتباط. وتحولت المحادثة التي دامت حتى الحادية عشرة لشيء جنوني، فقد تحدث العم جول عن صيد الحشرات، مما جعلني طيلة الليل أحلم بأنني أطلق النار على أم أربعة وأربعين، والجراد، والعقارب.

وفي تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، كنا جاهزين، مرتدين ثياب الإجازة، سراويل من القماش الخام، وقمصاناً قصيرة الأكمام، بيضاء، تزينها

أربطة عنق زرقاء. هذه الثياب كانت قد صنعتها لنا أمي، وكنا قد اشترينا من محل كبير قبعاتنا ذات الحواف الطويلة، وأخفافنا ذات النعال المصنوعة من الحبال.

وارتدى أبي سترة عسكرية، لها جيبان كبيران مذهبان، وقبعة بحرية زرقاء، بينما بدت أمي شابة صغيرة وجميلة في ثوبها الأبيض المحلّى بزهور صغيرة حمراء. والذي كان لائقاً عليها بشكل رائع.

أما أختنا الصغيرة، التي كانت تفتح عينيها الواسعتين السوداوين تحت طاقية زرقاء، فقد بدا عليها القلق لأنها فهمت (كما تفهم القطط) أننا سنغادر البيت.

كان الفلاح قد حدد لنا سلفاً، أن تحديد ساعة رحيلنا لا يتوقف على اجتهاده، وإنما على سرعة تصريفه لمشمشه.

ولم يحدث ذلك بسرعة في هذا اليوم، لأنه حتى ساعة الظهيرة لم يكن قد جاء. لذا تناولنا في البيت الذي أصبح خاوياً، طعام غدائنا، من السجق الجاف واللحم البارد، ونحن نهرع بلا توقف إلى النافذة لترقُّب رسول الإجازة. الذي ظهر في نهاية المطاف.

٭ ٭ ٭

كانت العربة زرقاءَ زرقة باهتة، بدا من تحتها لون الخشب.

وكانت عجلاتها العالية تفصلها عن الجانبين مسافات كبيرة، مما يجعلها حين تصل إلى حافة المسافة، عند كل دوران، تصطدم اصطداماً مدوياً، وكانت

غامض كبير، بسبب الحاجز المدهون الذي يفصلنا عنها، والذي كان يمنع أيا من كان من الحديث معها. لكثرة ما تعرفه من أسرار.

وببطء، وصبر، وبعون من الرّجات وجذبات الفرامل، انزلقت بين الواقفين إلى جواري، وتمكنت من الوصول في النهاية للاقتراب منه، تاركا بول لمصيره التعس، فقد كان مزنوقاً بين ركبتين عاليتين لاثنين من الدركيين، ودفعت به رجّة العربة، للاصطدام بأنفه بفخذي سيدة ضخمة، كانت تراوح مكانها على نحو خطر.

وعندما وصلت إلى المقدمة، كانت القضبان أمامي تتسارع في اتجاهي بشكل مدوّخ، ورفعت الريح بفعل السرعة رفرف كاسكتيتي، وطنّت في صماخ أذني، فقد تخطينا في ثانيتين حصاناً منطلقاً بأقصى سرعة.

ولم يكن قد حدث لي أن وجدت نفسي في مثل هذه الآلات الحديثة، في هذا الزهو المنتصر لكوني إنساناً صغيراً، يغزو المكان والزمان.

لكن هذا النيزك من الحديد والصلب، الذي اقترب بنا من التلال، لم يذهب بنا حتى عندها. فقد توجب علينا مغادرته في الضاحية القصوى لمرسيليا، بمكان يدعى الباراس، ليكمل هو عدوه المجنون حتى أوبان.

وفرد أبي خارطة نظر فيها، وقادنا إلى مدخل طريق مترب، ينسرب من المدينة بين حانتين. فدلفنا فيه بخطوة واثقة، وراء جوزيف الذي حمل أختنا الصغيرة على كتفيه.

كان هذا الطريق الريفي جميلاً، فقد كان يمتد بين حائطين من الطوب المحروق بالشمس، تتدلى من فوقهما نحونا الأوراق العريضة لأشجار التين، وتعريشات الياسمين البري، وأفرع أشجار الزيتون العتيقة. وفي أسفل الحوائط كان شريطان من الأعشاب البرية والنجيل، يقوم اتساعهما دليلاً على أن نشاط

أطرها الحديدية تقفز على بلاط الطريق، ومحاورُها تئن، وحوافر البغل الذي يجرها يتطاير تحتها الشرر... وكانت تلك هي عربة المغامرة والأمل...

ولم يكن الفلاح الذي يقودها يرتدي سترة ولا قميصاً، بل صديرية مشغولة من صوف غليظ، يشع قذارة، وعلى رأسه قبعة بلا ملامح، ذات رفرف رخو. لكنه كانت له أسنان بيضاء لامعة تشع في وجهٍ كوجه امبراطور روماني. كان يتحدث بلكنة ريفية، ويضحك، ويطرقع بسير طويل مجدول من الجلد بطرف مقبض من الخيزران.

وبمساعدة من أبي، وبكثير من الانزعاج من المجهودات التي قدمها بول الصغير (الذي تعلق بأكبر قطعة أثاث معتقداً أنه سيحملها)، شحن الفلاح العربة، بما يعني أنه كوّم الأثاث بشكل هرمي. وأمّن بعد ذلك توازنها بتشبيكها بالحبال، والجدائل، والخيوط، ثم ألقى فوق كل ذلك جميعه غطاءً ممزقاً من الخيش. وصاح بلكنته الريفية:

ها نحن الآن جاهزون ! وأمسك بلجام البغل، الذي تحرك بطريقة طابور الأسرى والجرحى، المصحوبين بالشكمات العنيفة، تلك التي كانت تنهال على لجام الحيوان قليل الإحساس.

وتبعْنا الأثاث، كما لو كنا نتبع عربة جنازة، حتى شارع ميرنتييه، ثم تركنا الفلاح، وتوجهنا لأخذ الترام.

وفي الضجة المتألقة لحديدها، والاهتزازات المطقطقة لنوافذها الزجاجية، وصريرها الطويل الحاد في المنحنيات، انطلقت العربة العجيبة نحو المستقبل.

ولأننا لم نجد مكاناً نجلس فيه على الكنبات الطويلة، وقفنا – وياللمعجزة – في مقدمة العربة. فكنت أرى ظهر السائق. الذي كان يضع يديه على ذراعي القيادة، فيطلق ويكبح على التوالي قفزات الوحش، بهدوء متسلطن. ووقعت تحت تأثير الإعجاب بهذه الشخصية الشديدة الجبروت، التي تحولت إلى سر

عمال الطرق كان أقل أهمية من الطريق.

كنت أستمع لصرير الصراصير، وكانت المزاريب الساكنة، على الحائط العسلي اللون، تفتح أفواهها لتلقى الشمس، وكانت السحالي الصغيرة الرمادية تلتمع وهي تتحرك وسط مزاريب الرصاص، وراح بول من فوره يتصيدها، لكنه لم يظفر منها إلا بأذيال تتلوى. وشرح لنا أبي أن هذه الحيوانات الصغيرة اللطيفة، تترك أذيالها وتفر كاللصوص الذين يتملصون من ستراتهم عندما يمسكهم البوليس ليهربوا. فضلا عن أنها تنمو لها أذيال جديدة خلال عدة أيام، لتستخدمها في فرار جديد... وبعد ما يربو على الساعة من المشي، قاطع طريقنا طريق آخر. عبر ما يشبه الميدان المستدير، الذي كان خالياً تماماً ، إلا من دكّة حجرية، في فراغ أحد الجوانب الأربعة لدائرة الميدان، وهي التي جلست عليها أمي وفرد أبي خارطته.

– هذا هو المكان، قال، الذي غادرنا فيه الترام، وهذا هو المكان الذي نحن فيه الآن، وهذا هو ميدان «الفصول الأربعة» الذي سيقابلنا فيه ناقل أثاثنا، والذي سننتظره فيه.

وتأملت بدهشة خط السير، المتثنّي الذي كان يتخذه طريقنا، والذي كان يلتوي بشكل حاد.

– مجانين عمال الطرق هؤلاء، قلت، لأنهم يقيمون طريقاً مفتولاً بهذا الشكل.

– ليس عمال الطرق هم المجانين، قال أبي، إن مجتمعنا هو الغارق في العبث.

– لماذا ؟ سألت أمي .

– لأن هذه الالتواءات الشديدة فرضت علينا بسبب أربع أو خمس ملكيات

كبيرة، منعت الطريق من المرور بها، وهي تمتد خلف الحوائط... فهذه هي فيللتنا، قال وهو يشير بأصبعه على نقطة في الخارطة... إنها تبتعد بشكل مستقيم مسافة أربعة كيلو مترات عن الباراس... ولكن بسبب بعض الملاك الكبار، سنتكبد للوصول إليها تسعة كيلو مترات.

– هذا كثير على الأطفال، قالت أمي، ولكنني فكرت في أنه كان كثيراً عليها هي. وهو السبب الذي جعلني عندما قام أبي لمعاودة السير، أطلب بعض دقائق أخرى للراحة، متعللاً بأن ألما أصابني في كاحلي.

ومشينا لمدة ساعة أخرى بين الحوائط التي أجبرتنا على الدوران كالبلْي في لعبة الأطفال... وعاود بول صيد أذيال السحالي في المزاريب. لكن أمي أقنعته بالعدول عن ذلك، ببعض الكلمات المؤثرة التي أطفرت الدموع في عينيه، فاستبدل هذه اللعبة المتوحشة بتصيُّد الجرادات الصغيرة، التي راح يقتلها بطحنها بالأحجار.

أثناء ذلك راح أبي يشرح لأمي، أنه في مجتمع المستقبل، ستتحول كل القصور إلى مستشفيات، وستسقط كل الحوائط، وستمتد كل الطرق باعتدال.

– بهذا الشكل، قالت، أنت تريد القيام ثانية بالثورة.

– ليست الثورة هي ما يجب القيام به. فالثورة كلمة أسيء اختيارها، لأنها تعني القيام بدورة كاملة ينتج عنها أن يهبط الذين في أعلى السلم الاجتماعي لأسفله. لكنهم سرعان ما يعودون إلى موقعهم القديم... وتبدأ الدورة من جديد، فهذه الحوائط الظالمة لم تقم في ظل النظام القديم، بل إن جمهوريتنا لم تتسامح فحسب مع قيامها، وإنما هي التي بنتها.

كنت أعشق هذه المداولات السياسية – الاجتماعية التي يقوم بها أبي، وكنت أفهمها بطريقتي، وأسأل نفسي لماذا لا يفكر رئيس الجمهورية أبداً في

الإستعانة بأبي، على الأقل خلال الإجازات، بما أن بمستطاعه خلال ثلاثة أسابيع فحسب أن يحقق السعادة للبشرية.

وانعطف طريقنا مرة واحدة لطريق أوسع كثيراً، لكنه لم يكن أفضل حالاً من سابقه.

– نحن قد وصلنا تقريباً إلى مكان اللقاء، قال أبي. فهذه التعريشات التي تشاهدينها هناك، هي تعريشات ميدان الفصول الأربعة ! وانظري ! قال فجأة وهو يشير إلى العشب الكثيف الذي يكسو أسفل الحائط، هذه بشرى رائعة !

– إنها القضبان ! قال أبي، قضبان الخط الجديد للترام ! الذي سيعمل قريباً جداً!

كانت القضبان تمتد على طول الطريق، لكن الفطر الذي نما عليها يؤكد أن الذين قرروا إنشاءها لم يقدّروا مدى الضرورة المستعجلة لها.

ووصلنا إلى الحانة الريفية بميدان الفصول الأربعة. وكانت على مفترق الطريق، عبارة عن بيت صغير مختفٍ بين تعريشتين، خلف نافورة عالية مكسوة بالحصى المزبّد. وكان الماء الذي يخرج من الصنابير الأربعة المكوّعة، يردد في الظل صوت الخرير الطازج.

كان المنظر بديعاً، تحت سقائف هذه التعريشات، أمام المناضد الصغيرة الخضراء، لكننا لم ندخل هذه الخمارة، التي يخفي لُطْفُها الخطر المحدق.

وجلسنا على الحاجز الذي على حافة الطريق، وفتحت أمي كيس الزوّادة، ورحنا نلتهم قراقيش زمان الذهبية اللون، والسجق الطريّ الدسم (الذي كنت أفتش فيه أولاً عن حبة الفلفل الأسود، كما نفتش عن حبة الفول المخبأة بشطائر عيد الفصح)، والبرتقال الذي نضج جيداً على الشجيرات الإسبانية.

وفجأة، قالت أمي، بقلق :

– جوزيف، هذا بعيد جداً !

– ولم نصل بعد ! قال أبي بغبطة... فما زال أمامنا سير ساعة !

– نحن لم نحمل شيئا اليوم، فما بالك لو كنا حاملين أشياءً...

– سنحملها، قال أبي .

– يا أمي، نحن ثلاثة رجال، قال بول. ولن نتركك تحملين شيئاً.

– طبعا ! قال أبي. فسيكون الأمر نزهة. نزهة طويلة بعض الشيء ولكنّها نزهة صحيّة ! بالإضافة إلى أننا لن نجيء إلا في عيد الميلاد، وعيد الفصح، والأجازة الكبيرة، أيْ ثلاث مرات في العام ! كما أننا سنبدأ الرحلة في الصباح الباكر، ونتغذى على العشب، بمنتصف الطريق. ثم نتوقف مرة أخرى لنتبلع بشيء. وقد رأيت بنفسك هذه القضبان. وسأتحدث بشأنها مع شقيق ميشيل، الذي يعمل صحفياً لإثارة الموضوع، فهو أمر مرفوض أن تترك هكذا للصدأ وقتاً طويلاً، وأراهنك أنه قبل مضيّ ستة شهور، سوف ينقلنا الترام حتىّ المفارق، أيْ على مسافة ستمائة متر من هنا، فلا تبقى أمامنا سوى مسافة مشي ساعة.

ورحت أتخيل القضبان تخرج من العشب وتتعشق في بلاط الطريق، بينما تتعالى على البعد الزمجرة الصماء للترام.

◊ ◊ ◊

إلا أنني، حين رفعت رأسي، لم تكن الآلة الجبارة هي التي شاهدتها، وإنما

الهرم الرجراج لأمتعتنا.

وصاح بول صيحة فرح وجرى للقاء البغل، الذي كان الفلاح يجذبه من مؤخرته ورقبته وهو مباعد بين ساقيه... وبهذا الشكل صعد به إلى المكان الذي كنا فيه. وتقدم نحونا، ممسكا باللجام، ثملاً من الاعتداد والتوجس، يبتسم ابتسامة ما بين الفرح والغم، بينما كانت تجتاحني حالة من الغيرة المخجلة منه.

وتوقفت العربة، وقال الفلاح : الآن سنجلس السيدة .

وفرد كيساً من الخيش، على مقدم سطح العربة، عند أطراف أذرعها، وأعان أبي أمي على الصعود، فجلست مدلدلة ساقيها، ووضع بين ذراعيها الأخت الصغيرة، التي كان فمها ملغمطاً بالشيكولاتة، وسار بحذاء العربة، بينما رُحْت أتشعلق في عريشها، وأتبع الموكب وأنا أترقّص.

ولم يهدأ بول، بل راح يتبختر أماماً وخلفاً بشكل مزهو، على إيقاع خطو البغل، الذي كنت أكبح بشدة في نفسي الرغبة الحارقة في القفز على كفله.

وكان الأفق محتجباً أمامنا وراء الأشجار الضخمة العالية المورقة التي أحاطت بمنعرجات الطريق.

وبعد عشرين دقيقة من المشي، اكتشفنا فجأة قرية صغيرة، منتصبة فوق تل، بين واديين، وكان المنظر محجوباً من الجانبين يميناً ويساراً بصخرتين عموديتين، يسمّيهما الريفيون العوارض.

– ها هي قرية التعريشة ! قال أبي . ووصلنا إلى سطح مطلع وعر .

– هنا، قال الفلاح، يجب أن تنزل السيدة، ونزق العربة قليلاً. وتوقف البغل من تلقاء نفسه، وقفزت أمي إلى الأرض المغبرة.

وأنزل الفلاح بول، ثم اتجه إلى أسفل بطن العربة، وفتح ما يشبه الدُّرْج،

وأخرج منه زاويتين خشبيتين. أعطى واحدةً منها لأمي التي أصابتها الدهشة.

- هذه سنادة، قال لها. عندما أطلب منك، ستحشرينها من الخلف ما بين العجلة والأُرض.

وبدت السعادة على أمي لأنها ستشارك في عمل رجالي، وأمسكت بالسَّنادة الغليظة بيديها الصغيرتين.

- أنا، قال بول. سأضع الأخرى تحت العجلة الثانية.

وقبل الفلاَّح اقتراحه، وأصابني الكدر العميق لهذا العدوان الجديد على حقوق الابن البكر. ولكنَّني أعيد لي تمام اعتباري، عندما أعطاني الفلاح سوْطه، الذي كان مضفوراً، وشديد الغلظة وقال لي :

- أنت، ستضرب مؤخرة البغل...

- على مؤخرته ؟

- في كل مكان. وبالمقبض !

ثم بصق في يديه، وأدخل رأسه بين كتفيه، ومد ذراعيه للأمام، وتقوس متمترسا وراء العربة، فكان جسده في وضع أفقي تقريبا. واتخذ أبي نفس الوضع مثله، وصاح بكل قواه. ورحت أضرب الحيوان، بغير شراسة، كما لو أنني كنت فقط أعطيه الإشارة ليبذل جهده، وارتج كل العتاد، وقطع مسافة ثلاثين مترا ؛ بعدها صاح الفلاح، وهو يلهث، بغير أن يرفع رأسه :

- السَّنادة ! السَّنادة !

ووضعت أمي، التي كانت تراقب العجلة، الزاوية الخشبية بسرعة، تحت الإطار الحديدي ؛ وقلّدها بول على الناحية الأخرى، بسهولة ملحوظة، وتوقفت العربة للراحة خمس دقائق. وتحين الفلاح الفرصة ليقول لي إنه كان يجب أن

أضرب البغل بقوة أشد، وإنه كان من المستحسن أن أضربه تحت بطنه، مما جعل بول يصيح:

– لا ! إلا هذا ! لا أريد هذا !

وعندما بدا على أبي التأثر لرقة قلب الغلام الصغير، أشار بول بأصبعه إلى الفلاح، الذي أصابته الدهشة، وهو يصيح :

– لا بد من فقأ عينيه !

– هو هوه ! قال فرانسوا باستنكار، فقأ عيني أنا ؟ ما هذا المتوحش ؟

أعتقد أن من الأوفق أن نحبسه في الدرج. واتخذ هيأة من سيفتح الدرج، وجرى بول وأمسك بسراويل أبيه.

– هذا ما يحدث، قال أبي في وقار، فعندما نحاول أن نفقأ أعين الناس، ننتهي بأن نحبس في الأدراج.

– غير معقول ! صرخ بول، أنا لا أريد هذا ؟

– يا عم، قالت أمي، ربما أمكننا التريث قليلاً، فهو لم يقل هذا إلا على سبيل الضحك.

– حتى ولو للضحك، قال فرانسوا، هذا شيء لا يقال، وخاصة أن يفقأ عيني في اليوم الذي اشتريت فيه نظارة شمسية.

وأخرج من جيبه نظارة من النوع الذي يشبك بالأنف ذات زجاج أسود من سقط المتاع الذي يباع في السوق بأربعة قروش.

– يمكنك أن تضعها، قال بول، حتى على طرف أنفك.

– ولكن، أيها التعس، قال الفلاح، عندما تكون أعيننا مفقوءة، ونضع فوق ذلك نظارات سوداء، فلن نرى شيئا على الإطلاق ! على العموم، هذه المرة لن

أقول لك شيئا... هيا بنا !

وعاد كل منّا لمكانه. وأخذت أضرب البغل أسفل بطنه، ضرباً خفيفاً، ولكن مع الصياح بالأوامر في أذنيه، في الوقت الذي كان الفلاح ينعته «بالحصان العيان. الرِّمّة» ويتهمه بأنه آكل خراء.

وبجهد جهيد وصلنا القرية، أو بالأحرى العزبة، التي كان قرميد أسْقُفِها الأحمر من النوع ذي الحجم الكبير الأثري، ونوافذها من النوع الصغير جِدا الذي يطل عبر جدران سميكة للغاية.

كان يوجد بها إلى يسار الداخل فناءٌ محاطٌ يَحُدُّه حائطٌ مائل إلى الوراء، يعلو حوالي عشرة أمتار. أما إلى اليمين فكان الطريق. قلت : هو الطريق الرئيسي، إذا لم يكن بها طريق آخر. لكننا لم نقابل سوى طريق عرضي صغير لا يزيد طوله عن العشرة أمتار رغم أنه كان ينعطف بزاويتين قائمتين ليبلغ ميدان القرية. وكان الميدان الصغير، الأقل من فناء مدرسة، تظلله أشجار التوت العجوزة، ذات الجذور الممتدة لأعماق بعيدة، وشجرتا أكاسيا، تحاولان تجاوز قبة أجراس الكنيسة في تطلعها صوب الشمس.

كانت في منتصف الساحة نافورة تُنْشد وحدها. عبارة عن حوض يشبه الصَّدَفة من الحجر الخشن، مثبّت كأنه شمعدان، حول نصب مربع، تخرج منه أنبوبة من النحاس..وتم فك البغل ليستريح (بالطبع لا يمكن تصور الشيء نفسه بالنسبة للعربة)، وقاده فرانسوا إلى الحوض، فشرب الحيوان طويلاً، وهو يذُبُّ عن كشحه بذيله.

ومر فلاح نحيف بعض الشيء ذا ملامحٍ نكراء، تحت لبدة تصلّبت من الوسخ. كان له حاجبان أصهبان، غليظان كسنبلتيْ شعير. وعينان صغيرتان سوداوان تلمعان كأنهما في عمق نفق. وكان له شارب ضخم أشقر يغطي فمه، وقد نبتت على وجنتيه لحية لم تحلق منذ ثمانية أيام. وعند مروره بالبغل،

بصق، ولكنه لم يقل شيئاً. ثم أخفض بصره، وابتعد وهو يتمطوح.

– لديهم هنا شخص غير ودود، قال أبي.

– ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة هنا، قال الفلاح، فهذا الشخص يريد إيذائي، لأنه أخي.

وبدا له هذا السبب شرحاً كافياً، واقتاد البغل، الذي أسقط من مؤخرته بَعض الفِشْل، وعندما انتهى، أبرز شرجه خارجاً، على شكل حبة الطماطم.

وقد خيِّل لي لهذا أنه مريض وسيموت، لكن أبي طمأنني :

– أنه يفعل هذا للتطهر، قال لي، فهذه هي طريقته في تنظيف نفسه.

وأعيد ربط البغل بين ذراعي العربة، وغادرنا القرية، وبدأت أدخل عالماً من الفتنة وشعرت بميلاد حبٍّ صار ملازماً لي مدى حياتي.

كانت تمتد أمامي في منظر طبيعي نصف دائري يصل إلى السماء، غابات من الصنوبر تفصل بينها الأودية التي كانت تتداعى كالأمواج أسفل ثلاث قمم صخرية. ومن حولنا، كانت سفوح التلال المنخفضة ترافقنا أثناء الطريق. الذي التف وراء قمة بين واديين، كانت تشبه طائراً عظيماً أسود، ساكناً، تجسدَ في وسط السماء. وكانت الضوضاء النحاسية لصراصير الحقول، تصعد من جميع الجهات كبحر من الأنغام. كما لو أن تلك الصراصير كانت تتعجل الحياة، وتعرف أن الموت يأتي مع المساء.

وأشار لنا الفلاح إلى القمم التي كانت تعلو إلى السماء في عمق المنظر. كانت إلى يسارنا، شَعْفَة كبيرة بيضاء، تتألق في الشمس الغاربة، على رأس مخروط هائل مائل للاحمرار.

– انظروا، قال الفلاح، لهذه الرأس الحمراء.

وكانت إلى يمينه تلتمع شعفة أخرى مائلة للزرقة، أعلى قليلاً من الأولى، مكونة من مصاطب ثلاثة متحدة في مركز واحد، تتسع باتجاه قاعدتها، كدوائر الكرانيش الثلاثة لفستان الفرو الذي ترتديه الآنسة جويمار.

– وهذه، قال الفلاح هذه هي «التأومي».

وبينما كنا نبدي إعجابنا بهذه الكتلة الجبلية، أضاف :

– يسمونها كذلك «توبي»

– وما معنى ذلك ؟ سأل أبي .

– معناه أن اسمها «توبي» أو «تاومي» .

– الأصل أن لها اسمين، ولكن لا أحد يعرف لماذا. أنت أيضاً لك اسمان، وأنا كذلك.

ولكي يقتصر الكلام على هذا الشرح الحكيم، الذي بدا لي منقوصاً. طرقع بسوطه عند أذني البغل، الذي أجاب عليه بضرطة.

كان يظهر في عمق المنظر إلى اليمين، ولكن أبعد من الشعفتين، سفح مائل يمتد إلى السماء، يحمل على كتفيه شعفة الصخر الثالثة، الجانحة إلى الوراء، والمهيمنة على كل المنظر.

– هذه. هي جارلبان ، وأوبان تقع أسفلها من الناحية الأخرى.

– أنا ولدت في أوبان، قلت .

– إذن، فأنت من هنا، قال الفلاح.

ونظرت نحو أسرتي بافتخار، وصرت أرى المشهد الطبيعي الجليل من حولنا بعاطفة جديدة.

– وأنا، قال بول بقلق، أنا ولدت في سان – لو. فهل أنا أيضا من هنا ؟

– إلى حد ما، قال الفلاح، إلى حد ما، تقريبا...

وانسحب بول، مغيظاً. ورائي. ولحنقه من حديث الفلاح، همس لي :

– إنه أبله !

لم نصادف بعد ذلك في طريقنا، لا عزبة، ولا مزرعة، ولا حتى كوخ. ولم يكن الطريق سوى خطين أخدوديين يفصلهما نتوء من الأعشاب البرية، التي كانت تحتك ببطن البغل أثناء سيره.

كان السفح يوغل في عمقه إلى يميننا، وكانت الصنوبرات الجميلة تطل بقاماتها من فوق الأشواك الكثيفة لأشجار السنديان، التي على الرغم من قصرها، لم تكن تطاول أعلى من قامة طاولة، كانت تطرح ثمار البلوط، فكأنها الأقزام من البشر الذين لهم سحن الرجال.

ووراء الوادي الصغير، كان ينتصب تلّ متطاول، له هيأة البارجة الحربيّة ذات السطوح الثلاثة المتراكبة فوق بعضها. وقد امتدت فوقه ثلاث غابات من الصنوبر تفصلها عن بعضها قمم من الصخور البيضاء.

– انظروا، هذه سواعد الروح القدس.

وعند ذكره لهذا الاسم، «الشديد الظلامية»، قطّب أبي حاجباً علْمانيّا، وسأل : أهم متدينين جداً أهل بلدكم ؟

– بعض الشيء، قال الفلاح .

– هل تذهب أنت لصلاة الأحد في الكنيسة ؟

– حسب الظروف... ففي أوقات الجفاف لا أذهب، لكنها حين تمطر، وتعد بالخير، أذهب، فالله الرحيم يكون في حاجة لمن يتفهمه.

وحاولت أن أشرح له أن الله غير موجود، وهو الأمر الذي كنت أعرفه من مصدر أكيد ؛ ولكن بما أن أبي نفسه قد صمت، تراجعت ولزمت الهدوء.

وانتبهت فجأة إلى أن أمي لم تكن تستطيع المشي بسهولة، بسبب من كعب حذائها موديل لويس الرابع عشر العالي. وبغير أن أقول شيئاً، لحقت بالعربة، ونجحت في أن أسحب منها الحقيبة الصغيرة، التي كانوا قد دسُّوها من تحت الحبال، في مؤخرة العربة.

– ماذا فعلت ؟ قالت مندهشة.

ووضعت الحقيبة على الأرض، وأخرجت منها زوجَ أخفافها، اللذين كانا في مقاس أخفافي. فأبتسمت لي ابتسامة رقيقة رائعة، وقالت :

– أيها العبيط، نحن لا نستطيع التوقف هنا !

– ولم لا ؟ سنلحق بهم بعد ذلك !

وجلست على حجر بجانب الطريق، وغيرت حذاءها، أمام عيني بول، الذي جاء يشاهد العملية، والتي بدت له هذه الحكاية متهورة جداً من وجهة نظر الحياء، فقد راح يراقب كل الاتجاهات، لكي يطمئن إلى أن أحداً لن يتمكن من الاطلاع على سيقان أمه.

وأمسكت بأيدينا، وهرولنا معاً حتى لحقنا بالعربة، حيث أُعدْتُ الحقيبة الثمينة لمكانها. ما كان أصغرها في تلك اللحظة ! كانت لها هيأة فتاة في الخامسة عشرة، كانت وجنتاها حمراوين، ولاحظت بسعادة أن سمانتي رجليها بدتا أكثر سمنة.

كان التل يهبط إلى يسارنا، بمصاطب ضيقة، إلى عمق وادٍ مخضوضر.

قال الفلاح لأبي :

– انظروا لهذا، إن له الآخر إسمين، فهم يطلقون عليه الوادي أو المجرى .

– هو هوه ! قال أبي مستظرفاً، وهل يوجد به مجرى ؟

– بالطبع، قال الفلاح، مجرى جميل .

واستدار أبي ناحيتنا : يا أولاد، في عمق هذا الوادي، يوجد مجرى !

واستدار الفلاح بدوره، وأضاف : عندما تهطل الأمطار بالطبع...

كانت مصاطب هذا الوادي مغطاة بخمائل الزيتون، المكونة كل منها من أربع أو خمس شجيرات، مزروعة بشكل دائري، ومائلة إلى الوراء قليلاً لكي تتمكن من نثر أوراقها التي تشابكت معاً. كما كانت توجد أيضاً أشجار اللوز ذات الخضرة الناعمة، وأشجار المشمش اللامعة. ولم أكن أعرف أسماء هذه الأشجار، لكنني أحببتها من فوري.

ولم تكن الأرض فيما بين الأشجار مزروعة، لكنها كانت مغطاة بعشب أصفر وأسمر، عرفنا من الفلاح أن اسمه الباووكو. وكان نوعا شبيها بالكلأ الجاف، إلا أن هذا كان لونه الطبيعي بغير أن يجف. وكان هذا الباووكو في الربيع، ومشاركة منه في الابتهاج العام، يبذل جهده ويخضر اخضراراً باهتا. ولكنه على الرغم من تلك الهيئة المجدبة، نشيط ومعمر، وجريت أتلمس النباتات التي بلا فائدة.

في هذا المكان رأيت للمرة الأولى باقات خضراء غامقة. تنمو في هذا الباووكو وتطل من أشجار الزيتون في خصل صغيرة، وكانت تصعد منها رائحة طاغية، رائحة لها حضور الضباب الذي غلفني كلية، فانحرفت عن الطريق، وجريت أتلمس أوراقها الصغيرة.

لقد كانت هذه الرائحة غير المعروفة لي نفاذة وقوية، تفتحت في كل رأسي وتوغلت حتى القلب. كان هذا هو نبات السعتر، الذي نما في حصباء الأرض البور، والذي هرعَتْ باقاته لاستقبالي، لتزف إلى التلميذ الصغير روائح إنياذة

فرجيليوس التي سيتعرف عليها في المستقبل.

وقطفت بعضاً من أغصانها، ولحقت بالعربة وأنا أتشممها بأنفي.

– ما هذا ؟ قالت أمي . وأخذتها من يدي، وتشممتها بعمق :

– هذا هو السعتر الأخضر، قالت. سوف نستعمله في طبخة يخنة بالأرانب رائعة.

– بالسعتر ؟ قال فرانسوا ببعض الاحتقار. الأفضل لك أن تستعملي (فلفل الثوم)

– وما هذا ؟

– كأنه نوع من السعتر، وقريب في نفس الوقت من النعناع، ولكن لا يمكن التعرف عليه بالوصف، سوف أريك إياه.

وطفق في أعقاب ذلك يتحدث عن السعتر البري، وإكليل الجبل، والمر ؟ واليسنون، التي يجب أن تحشى بها بطن الأرنب البري، والتي «نفرمها ناعماً. ناعما، ناعما» مع «قطعة كبيرة من شحم الخنزير».

كانت أمي تستمع إليه، في انتباه شديد. بينما رحت أنا أتشمم الأغصان المقدسة، وأنا أحس بالخجل.

كان الطريق يصعد باستمرار، ويعبر من حين لآخر هضبة صغيرة، وكنا عندما ننظر خلفنا، نلمح امتداد وادي الهوفون، تعلوه سحابة من البخار، تتوغل بعيداً حتى البحر اللامع. وكان بول يتقافز في كل الجهات، ويضرب بالحجارة جذوع أشجار اللوز، وأسراب صراصير الحقل الهاربة، التي ترف بأجنحتها وتطن في سخط.

واعترضنا نتوءٌ أخير، فظ مثله مثل النتوء الأول، وبفضل دفعة من ضربات

الكرباج، راح البغل يقوّس ظهره على شكل منحنى الدائرة، ثم يفرده مرة واحدة، وهو يهز رأسه مع كل ضربة من مقبض السوط، مما جعله يجر العربة المنبعجة بطريقة مهرجلة، فراحت حمولتها تتأرجح يمنة ويسرة كاليويو، وهي تكسر في طريقها أغصان الزيتون. لكنها اصطدمت في إحدى تأرجحاتها بغصن زيتون أقوى من رجل المنضدة التي كانت ناتئة بالحمولة، فانكسرت وسقطت محدثة رنينا على رأس أبي المصعوق.

وبينما تكفلت أمي بالحيلولة دون تورُّم رأس أبي، وراحت تضغط له الكدمة بقطعة معدنية من فئة القرشين، اندفع بول الصغير يرقص وهو يضحك ملء شدقيه. أما أنا، فقد لملمت رجل المنضدة المذْنبة، وسعدت عندما تحققت من أن الكسر الطولي الذي حدث فيها كان مائلا بما يُسهِّل عملية إصلاحها.

وهرعت أزف هذه النتيجة إلى أبي،الذي كان مقطباً وجهه،من جراء الضربة التي أصابه بها تمثال نابليون الثالث المنحوت برجل المنضدة فسحق رأسه.

ولحقنا بالعربة، وكانت قد توقفت في غيضة بأعلى المرتفع، لكي يتمكن البغل المستشهد من التقاط أنفاسه. وكان يتنفس فعلاً بعمق محدثاً ضجة شديدة، وهو ينفخ ضلوعه النحيفة التي كانت أشبه ما تكون بطوق محشور في كيس، وكانت خيوط اللعاب النحيفة تسيل من مشافره الطويلة المطاطية.

في هذه الأثناء، أشار لنا أبي – بيده اليسرى –، فقد كان يدعك طيلة الوقت بيمناه رأسه المتألِّمة – على بيت صغير، بالجهة المقابلة، كان نصف مختف وراء شجرة تين ضخمة.

– ها هو، قال. ها هو الحصن الجديد. بيت الإجازات، وهذه الحديقة التي إلى يساره لنا أيضا.

كانت الحديقة محاطة بسياج صدئ، وطولها على الأقل مائة متر. ولم أستطع أن أتبين من البعد فيها سوى غابة من الزيتون واللوز، تقاطعت أغصانها

المجنونة فوق أدغال متداخلة من الشوك، إنها الغابة البكر الجميلة، التي كنت قد رأيتها في كل أحلامي، فاندفعت صوبها، يتبعني بول، ونحن نرفع عقيرتينا بصيحات السعادة.

٥ ٥ ٥

كانت هناك عربة نقل صغيرة تقف، على المصطبة، فيما بين شجرة التين الضخمة والبيت، وكان حصاناها يمضغان الشعير من أكياس مدلاة على عارضيهما.

ووجدنا العم جول، مشمراً كُمّي قميصه، وقد فرغ من إنزال عفشه من العربة، أيْ أنه فرغ من قلب العفش من على ظهر العربة، إلى ظهر الحمّال.

وكانت خالتي روز جالسة في مقعد من جريد الصفصاف على المصطبة، تلقم الرّضاعة لابن العم بيير، الذي راح يحرك أصابع قدميه معلنا عن ابتهاجه. وكان العم محمر الوجه، أكثر مرحاً من أي وقت، إذ راح يتحدث بصوت جهوري، وهو يلوك حروف الراء كأنه نعّارة خشبية، وأمامه على المنضدة زجاجتان فارغتان وثالثة فرغ نصفها من النبيذ الأحمر.

– ها أنتم جئتم ، يا جوزيف ! صاح بفرح مفاجئ، أخيراً وصلتم ! كنت بدأت أتساءل ما إذا كنتم غرقتم في الطرِيق ! ونظر أبي إليه طويلاً ببرود :

– على كل حال، قال أبي، كان لديك ما يصبّرك على انتظارنا ! وأشار بأصبعه على الزجاجات الثلاث.

– يا صديقي العزيز، قال العم، أنت تعلم أن النبيذ غذاء لا غنى عنه للذين

يعتمدون على قوتهم في الشغل، خصوصا الحمالين. أعني النبيذ الطبيعي، وهذا النبيذ مصنوع في بيت عائلتي بالقرية ! فضلاً عن أنك أنت نفسك ! عندما تفرغ من إنزال أمتعتك، ستهنأ بارتشاف قدح منه.

– يا عزيزي جول، قال أبي، ربما أشرب مقدار أصبعين، تحية مني لما أنتجته يداك، لكنني لن «أرتشف قدحاً» كما قلت، فقدح من هذا النبيذ قد يحتوي على خمس سنتيمترات من الكحول الصافي، ولست متعوداً بما فيه الكفاية على هذا الشراب لكي أحتمل جرعة كهذه، تكفي بِحَقْنها تحت الجلد لقتل ثلاثة كلاب كبيرة الحجم. ثم أنظر إلى ما صنعه الكحول بهذا الرجل.

وأشار إلى الحمال، الذي كان يَمُصُّ شاربه المتهدل، ويتراجع مترنحاً ناحية العربة وهو مقطوع النفس. كان يحمل منضدة صغيرة بذراع، ومقعدين بالذراع الأخرى، ويحاول عبور باب البيت بقفزة واحدة. وأثناء محاولته تلك انحشر بين طقطقتين، وتسبب انحشار المنضدة الصغيرة في انبجاس صوت أزيز راعد من أحشائها التي تفسخت.

واستدارت أمي لكيْ تضحك، وانفجرت خالتي روز في الضحك رغما عنها. وكان بول في قمة سعادته. أما أنا فلم أضحك، فقد توقعت أن أرى الرجل يقع بين أنقاض هذه الأثاثات في سقطة متشنجة.

وبدلاً من محاولة إعانة هذا البائس (تخيلت كبده)، أصاب الغضب العم جول، الذي احمر تماماً وهو يقول : يا لجهلك... تبًا لك، يا لجهلك... أنت ترى بوضوح أن هذا الباب أضيق كثيراً من أن...

– أنا لن أرد عليك، أفاق الحمال، فلست أنا الذي صنع الباب .

– إنه على حق، قال أبي، فهو لم يصنع الباب، ولم يصنع نفسه... ولأن كلاً منهما لا يتماشى مع الآخر، فلا يوجد سبب للإصرار. ثم إنك قد أنزلت

أمتعتك، وأنا لا أحتاج إليه لإنزال أمتعتي. فهو مرهق بالتأكيد، وبما أن يومه قد انتهى، من الأفضل أن نتركه يعود للمدينة.

– هاك من يقول الحق، أعلن الحمال. الساعة الآن تخطت الخامسة. وأنا عندي عائلة. وعندي فَتْقٌ، فضلاً عن أن ورائي أشغالاً. أما إذا استغربتم من أن يكون عندي فتق،يمكن إذا شئتم أن أريكم إياه.

– أنت واحد سكير وأبله، قال العم جول.

وتحوّل المفتوق إلى التهديد :

– لا أدري ما الذي يحوشني عن تكسير رأسك .

ونهضت أمي وخالتي، مفزوعتين، وتدخل أبي فيما بين العم جول والسكير، لكن هذا دفعه، وهو يتقدم ناحية العم جول، ويردد :

– لا أدري ماذا يحوشني !

واختبأ بول، وكان شاحباً تماماً، خلف جذع التينة، ورحت أنا أبحث بعيني عن حجر مدبب، في حين علا صوت !

– حاول أن تتجرأ على هذا، وسترى الذي يمنعك !

كان الصوت صوت فرانسوا، الذي تقدم، بهدوء شديد، ممسكا في قبضته بالدنجل، أي نبوت الخشب الصلد الذي يستند إليه عريش العربة.

واستدار الحمال ناحيته، بحنق وهو يصرخ :

– بماذا ؟ بماذا ؟

– بهذا، بهذا ! أجاب فرانسوا .

– هذا ثقيل ! قال الحمال .

– ثقيل جداً، قال فرانسوا الذي وازن الدنجل بيده بطريقة الخبير، ثم التفت ناحية العم جول قائلاً :

– هل دفعت له ؟

– ليس بعد، قال العم جول، إن له عندي سبعة فرنكات ونصفاً

– ادفع له، قال فرانسوا .

وأعطى العم جول للسكير ثلاث قطع فضية .

– وحق المشروب، قال الحمال .

– لقد شربت بما يكفي، وصدقني هذا لن يفيدك .

– أنتم عصابة أوساخ، قال الحمّال .

– هيا غور، قال فرانسوا، اركب عربتك. وسأساعدك على الدوران.

ونظر إليه بطريقة جعلت السكّير يتلطف فجأة :

– أنت صديق، قال له، وتفهم معنى الحياة. أما هؤلاء البورجوازيون، فياللعجب لهم ! أتتخيل أنني ربما تكون أمعائي قد انفزرت بسبب منضدة السرير اللعينة هذه، وأنه يرفض أن يعطيني حق المشروب ! ..على العموم الأمر لن يمر هكذا، وسوف أجعلهم يتكبدون أكثر من البقشيش !

وأمسك بأزمّة الخيل، بينما كان فرانسوا يلوي أعناق الحصانين، اللذين أمسكهما بقوة من عنانيهما. إلى أن استويا تماماً على الطريق، في اتجاه العودة، عندها توجه إلى عربته هو، فأخذ سوطه، وكان الحمال يلوّح لنا بقبضته، ناطقاً بالتهديدات المبهمة، حين صرخ فرانسوا صرخات متوحِشة، وهو يسوط الحيوانين بكل قوة ذراعه، وطارت العربة في سحابة من العفَار، والطقطقات، واللعنات، وتوغلت في الماضي.

هكذا بدأت أجمل أيام حياتي، كان هذا البيت يطلق عليه اسم «الحصن الجديد»، لكنه كان قد مضى وقت طويل عليه حين كان جديداً. فقد كان المكان في الأصل مزرعة قديمة خربة، أصلحها منذ ثلاثين عاماً رجلٌ من المدينة، كان يتاجر في قماش الخيام، والمشّايات، والمكانس. وتعاقد أبي وعمّي معه على دفع إيجار سنوي قدره ثمانون فرنكاً (أي أربعة فرنكات ذهبية من فرنكات الملك لويس). وهو الإيجار الذي رأت زوجتاهما أنه مغالى فيه. لكن هذا البيت كان له مظهر الفيلا، وكان به «مخزون ماء»، أي أن التاجر الجريء للمقشات كان قد بنى خزّانا كبيرا للمياه على سطحه، وهو خزان له نفس مساحة ونفس علوّ البيت تقريبا، فكان يكفي أن تفتح صنبوراً نحاسيًّا، مركّباً فوق حوض غسيل الصحون، لكي ترى تدفق الماء الصافي البارد...

كان هذا الأمر فخفخة غير عادية، ولم أفهم إلا فيما بعد معجزة هذا الصنبور. فقد كانت المنطقة بأسرها، من أخمص نافورة قريتها، حتىً أعالي نجومها، منطقة للعطش، فلمسافة عشرين كيلومتراً، لم يكن يصادفك فيها إلا دزينة من الآبار (معظمها يجف بدءا من شهر مايو) وأربعة أو خمسة «ينابيع»، واقعة في أعماق مغارات صغيرة، كل منها عبارة عن ثلم في صخرة، يدمع في صمت فوق مايشبه اللحية المزبدة.

لذا، فعندما كانت تجيء إلينا إحدى الفلاحات، لتبيعنا البيض أو الحمص، وتدخل إلى المطبخ، كانت تطيل النظر، وهي تهز رأسها، إلى هذا الإختراع المتلألئ.

كانت توجد بالدور الأرضي أيضا قاعة طعام كبيرة (حوالي خمسة أمتار في أربعة) كانت تزينها على نحو فخم مدفأة صغيرة من الرخام الحقيقي. كما كان يوجد بالدور الأرضي أيضاً سلم، مُتكوّع، يفضي إلى أربع غرف في الدور الأول، مصمّمة نوافذها بطريقة حديثة، فكان فيما بين شيشها وزجاجها أطر

قابلة للفتح والغلق مكسوة بشبكات من نسيج معدني خفيف، لتمنع تسلل حشرات الليل.

كان البيت مضاء بمصابيح البترول، وبعض الشموع للطوارئ. ولأننا كنا نتناول وجباتنا في الخارج، على المصطبة، تحت التينة، كنا نستضيء أيضا بمصباح من ماركة العاصفة.

هذا المصباح العجيب ! أخرجه أبي ذات مساء من صندوق الكرتون، وعمّره بالبترول، وأشعل الفتيل، فانبعثت منه شعلة مستوية، لها شكل اللوزة، غطاها بزجاج مصباح عادي. ثم وضع المصباح بأكمله داخل زجاجة بيضاوية، تحميها شبكة معدنية، مركبة فوق وعاء معدني، كان هذا الوعاء صيّاداً للريح. فقد كان مثقوباً بثقوب تستقبل النسمات الليلية، وتمررها داخلها ثم تدفعها، بعد أن تهدأ، نحو الشعلة المستقرة التي تلتهمها... وعندما رأيت ذلك المصباح، معلقا على غصن التينة، مشتعلاً، لامعاً، ساكناً، كمصابيح الكنيسة، نسيت حساء الجبن الذي كنت أتناوله، وقررت أن أكرس حياتي للعلوم... فهذه اللوزة المتلألئة ظلت تضيء لي طفولتي إلى اليوم، وكانت دهشتي بها أكبر من دهشتي بمنارة الفنار التي زرتها بعد ذلك بعشرة أعوام.

فعلى غرار الفنار، الذي يغوي السّمان والزّقزاق، كان هذا المصباح يجذب كل حشرات الليل. فما إن نعلقه على غصنه، حتى يحيط به سرب من الفراشات السمينة، التي كانت ظلالها تتراقص على مفرش الطاولة، وتحترق بفعل الغرام المستحيل، وتسقط مشوية في صحوننا.

كانت تحوم حولنا كذلك الزنابير الكبيرة، المسماة بالنطّاطة التي كنا نهشُّها بالفوَط، ونقلب الأكواب دائماً، وأحيانا نقلب الدّوْرق ؛ وحشرات قرن الأيل والقرنبيات، التي تجيء في الليل كما لو أن قاذفاً يقذف بها من عمقه، لتحاول إغواء المصباح قبل أن تعوم في سلطانية الحساء. وحشرات قرن الأيل

هذه سوداء ملساء، لها في خطمها كَلاَّبة مستقيمة وكبيرة، ذات فرعين ناتئين من ضلع مزخرف، وهذه الأعجوبة النافعة، بسبب من عدم ليونة مفاصلها، لم تعد عليها بشيء، لكنها كانت ملائمة تماماً لأن نربطها منها بلجام من الخيط، لتجر به بغير عناء، مكواة ثقيلة من الحديد، فوق مفرش المشمع.

لم تكن الحديقة إلا روضة عجوزة مهملة، محاطة بسياج من السلك المستعمل في تسييج أقنان الدجاج، تآكل معظمه مع مرور الزمن. فكانت تسميتها بالحديقة متطابقة مع تسمية البيت بالفيلّا.

الأكثر من ذلك أن عَمِّي أطلق تسمية «الخادمة» على فلاحة ضالة، كانت تأتينا بعد الظهر لتغسل الصحون، وأحيانا الغسيل، الأمر الذي كان يعد فرصة لها لغسل يديها ؟ فانتسبنا نحن بهذا الشكل إلى الطبقة العليا، طبقة البورجوازيين المتميزين. وكانت تترامى أمام الحديقة، حقول القمح والشعير، فقيرة الزرع، المحاطة بأشجار الزيتون المعمرة.

أما ما وراء البيت، فكان مرتعاً لغابات الصنوبر التي تشكل جزراً داكنة وسط الأراضي البور المترامية، التي كانت تمتد في كل الجهات والسفوح، حتى سلسلة جبال سان فكتوار.

وكان «الحصن الجديد» آخر عمارة، على عتبة الصحراء، التي كان يمكن للمرء أن يسير فيها ثلاثين كيلومتراً بدون أن يصادف إلا الخرائب الواطئة لثلاث أو أربع من مزارع القرون الوسطى، وبعض الرعاة الشاردين.

كنا نسقط في النوم مبكرين، مستنفذين من اللعب طوال اليوم، وكان الأمر يتطلب حمل بول الصغير الذي يصير رخواً كعروسة القماش، فكنت ألتقطه في تمام اللحظة التي يقع فيها من على كرسيه، وهو يقبض بيد متشنجة على تفاحة نصف مقروضة، أو على نصف أصبع من الموز.

وحين كنت أتأهب للنوم، وأنا نصف غـائب عن الوعي، كنت كل ليلة أقرر أن أستيقظ في الفجر، حتى لا أخسر دقيقة من اليوم التالي الساحر. لكنني كنت لا أفتح عيني إلا في حوالي السابعة صباحاً، حانقاً متذمراً كل مرة كما لو أنني تأخرت على القطار.

عندها، كنت أنادى على بول، الذي يشـرع في التـذمـر على نحـو يثـيـر الشـفـقـة. وهو ينكمش ناحيـة الحائط، لكنه لـم يكن بمقـدوره الصـمـود أمام الشباك المفتوح، الذي يأتي مرة واحدة بالضوء، وهو يخبط بمصراعيه، وبصرير صراصير الحقل ورائحة الأرض البور لتغمر دفعة واحدة فضاء الغرفة الواسعة.

وكنا ننزل عاريين، وملابسنا في أيدينا.

كان أبي قد ركب بحنفية المطبخ خُرْطوماً من الكاوتشوك يصل حتى خارج البيت إلى المصطبة، وكان لهذا الخرطوم بزبوز نحاسي. فكنت أمسك به وأرش الماء على بول، الذي كان يرشه عليَّ بدوره، وكان هذا إختراعا عبقرياً من أبي، جعل من عملية التشطيف الصباحية الكريهة لعبة محببة، نظل نلعب بها حتى تصيح أمي علينا من النافذة: «كفي ! فلو فرغ الخزان، سنضطر للرحيل !».

وفي أعقاب هذا التهديد المخيف، كانت تغلق الصنبور بإحكام.

بعد ذلك، كنا نبتلع شطائرنا بسرعة مع القـهـوة بالحليب، وتبدأ المغامرة الكبرى. كان ممنوعاً علينا الخروج من الحديقة، لكن أحداً لـم يراقبنا، فأمي تعتقد أن السور من الصعب عبوره، وكانت خالتي مستعبدة تماماً لابن العم بيير. وكان أبي يذهب غالباً إلى القرية لأداء «بعض المهام»، أو إلى التل ليجمع الأعشاب ؛ أما العم جول، فقد كان يقضي بالمدينة ثلاثة أيام كل أسبوع، لأنه لم يكن قد حصل إلا على عشرين يوما إجازة قسمها على مدى الشهرين.

هكذا تُرِكْنا طلقـاء غـالب الوقت، وحـدث مـرات أن تسلَّلنا وذهبنا حـتى الأحراش القَرِيبة. لكن هذه المحاولات الكشفية، كانت تنتهي في معظم الحالات

بالهروب المضطرب إلى المنزل، برغم إرهاف أذني، والسكين التي أحملها في يدي، خوفاً من لقاء مباغت بثعبان كبير، أو أسد، أو دب من دببة المغارات.

كانت أُلعابُنا تبدأ بصيد صراصير الحقل، التي كانت تصرصر وهي تمص رحيق اللوز، وكانت تفرُّ منا في أول الأمر، لكننا تمكنا سريعاً من التدرب على مباغتتها والإمساك بها، الأمر الذي كان يجعلنا نرجع إلى البيت محاطين بهالة موسيقية، فقد كنّا نحمل منها الدزينات التي كانت تنشنش في جيوبنا وتقفز. كما كنا نصطاد الفراشات، وحشرة «الصمل»، وهي نوع من أبي دقيق لها ذيلان وأجنحة كبيرة بيضاء بأطراف زرقاء، كانت تترك على أصابعي غباراً ملتصقا بلون فضي.

ولعدة أيام كنا نلعب لعبة أطلقنا عليها لعبة إلقاء المسيحيين للأسود، فكنا نلقي بحفنات من الجرادات الصغيرة في الشباك المرصعة للعناكب القطيفية السوداء، المضلعة بالخطوط الصفراء، فكانت تلف حولها خيوطها في ثوان معدودة، وتنفذ بمهارة خراطيمها في رؤوس الضحايا، وتمتصها على مهل، بلذة نهمة. وكانت هذه الألعاب الصبيانية يتخللها تعاطينا لصمغ شجر اللوز، وهو الصمغ العسلي اللون، المسكِّر كقطع الحلوى الناعمة اللزجة، الذي كان العم جول ينصحنا بشدة أن نتجنبه، فكان يدّعي أن هذا الصمغ «سينتهي لأن يسد مصاريننا».

أما أبي المشغول بتقدمنا في الدراسة، فقد نصحنا بالتخلي عن الألعاب عديمة القيمة، وأن نراقب بدقة الحشرات، وأن نبدأ بتأمل سلوك النمل الذي كان يجد فيه نموذجاً لسلوك المواطن الصالح.

وكان هذا ما جعلنا نُخلّع في اليوم التالي كمية كبيرة من الأعشاب والباووكو حول المدخل الرئيسي لعش نمل كبير. وعندما صار المدخل ظاهراً تماماً في خط يمتد لمترين، نجحت في التسلل إلى المطبخ، أثناء قيام أمي

وخالتي بقطف اللوز من خلف المنزل ؛ وسرقت كوباً مليئاً بالبترول، وبعض أعواد الكبريت.

كان النمل، الذي لم يشتبه في شيء، يروح ويجيء في خطين متوازيين، كالبحارة على سطح الباخرة.

تأكدت أولاً من أن أحداً لا يراني، ثم صببت البترول بهدوء في الفتحة الرئيسية للعش، فأهاجت حالة من الفوضى مقدمة الطابور، وخرجت العشرات من النمل إلى خارج العش، تجري هنا وهناك على غير هدي، وأخذت النملات ذات الرؤوس الكبيرة تفتح وتغلق أفكاكها القوية، كأنها تبحث عن العدو غير المرئي. عندئذ أدخلت في فتحة العش قطعةً من الورق، وطلب بول أن تكون له مأثرة إشعال النار، وهو ما قام به على أفضل وجه، فارتفعت شعلة حمراء ذات دخان. وبدأت دراساتنا.

لسوء حظها، احترقت النملات بسهولة شديدة. فقد صعقتها النار في الحال، واختفت في لمعات شرر. وكانت هذه اللعبة النارية الصغيرة ممتعة لكنها كانت قصيرة، زد على ذلك، أنه بعد فناء النمل الذي كان خارج العش، انتظرنا بلا جدوى خروج الجحافل القوية التحت أرضية، والإنفجار الصاخب للمملكة، وهو الأمر الذي كنت أتوقّعه، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يبق أمام أعيننا سوى حفرة صغيرة، اسودّت بفعل النار، وكانت تعسة وغريبة كأنها فوّهة بركان خامد.

مع ذلك، تعزّينا سريعاً عن هذا الإخفاق بأسر ثلاث «سُرعوفات» كبيرة، أي ثلاث حشرات خضراوات، من نوع «الراهبة»، كن تتنزهن على الأغصان الخضراء لشجرة من أشجار «رِعي الحمام» البرية العطرية، وكان ذلك موضوعاً مناسباً للبحث.

كان أبي قد قال لنا (بنوع من السرور العَلْمَاني) إن حشرة «السُّرعوفة»

هذه، والتي تدعى «الراهبة»، هي حشرة متوحشة لا قلب لها، بما يمكن معه اعتباره «نمر الحشرات»، وإن دراسة سلوكها أمر في غاية الأهمية.

لذا قررت أن أدرسها. فوضعت الحشرتين الأكبر فيما بينهن في مواجهة بعضهما ومخالبهما للأمام، لكي تنشب فيما بينهما معركة.

واستطعنا بهذه الطريقة التقدم في دراساتنا نحو استنتاج مؤدّاه أن هذه الحشرات المخلبية لديها القدرة على الحياة بلا مخالب، ثم بلا أرجل، بل حتى بنصف رأس... فبعد مضي ربع ساعة على هذه التسلية الطفولية العابثة، كانت إحدى بطلتينا قد تحولت إلى ما لا يزيد على نصف حشرة، بعد أن افترست صدر ورأس غريمتها، وظلت تهاجم بخمول. بنصفها الذي كان يتحرك بعصبية. وأسرع بول، الذي كان طيب القلب. وسرق أنبوبة الصمغ (الذي كان يلصق جميع المواد بما فيها الحديد) وحاول أن يلحم هذين النصفين معا، لكي نرمم بهما حشرة واحدة، تطلقها حرة باحترامها، لكنه لم يتمكن من النجاح في هذه العملية، لأن النصف العصبي نجح في الفرار.

كان النمر الثالث قد تبقى معنا، في برطمان، وقررت أن أقيم مواجهة بينه وبين النمل، ومكنتنا هذه الفكرة السعيدة من الاستمتاع بعرض ظريف.

قلبت البرطمان على جانبه دفعة واحدة. موجها فتحته صوب المدخل الرئيسي لعش نمل في معمعان نشاطه، واعتدلت الحشرة النمر على قوائمها الخلفية واقفة، ولكن لأنها كانت أطول من البرطمان. الذي كان صغيراً، فقد أطلت برأسها تنظر في كل ناحية بفضول السائحين. غير أن مجموعة من النمل خرجت من النفق وهاجمتها بالصعود على قوائمها، مما جعلها تفقد هدوءها، وتبدأ في الترقُّص، وهي تطوح بمخلبيها يمنة ويسرة، وكانت تشد في كل حركة كتلة من النمل، تحملها إلى فكيها، وتسقطها مقطعة أنصافا.

ولأن كثافة زجاج البرطمان شوهت من جمال العرض، ولأن الوضع

المتعب للنمر ضايق تحركاته، اعتقدت أن من واجبي أن أزيح البرطمان. وسقطت حشرة الراهبة على الأرض، متخذة وضعها الطبيعي، بمخالبها الستة المعقوفة وقوائمها الستة. لكن كل رجل من أرجلها كانت قد تعلقت بها أربعة نملات نشبن فيها أفكاكهن القابضة عليها، وهن متشبثات في الوقت ذاته بحصباء الأرض. وعلى هذا النحو شل النمل حركة النمر الذي لم يتمكن من أن يفعل ما فعله جاليفر مع الأقزام في وضع مشابه.

غير أن مخالبه، التي ظلت طليقة، راحت تهاجم بالتناوب كل قائمة من قوائمه، وتصرع في جيش الناهشين هذا. ولكن قبل أن تسقط في كل مرة النملات المقطعة من بين فكيها، كانت نملات أخرى تأخذ مكانها، وتبدأ من جديد.

كنت أتساءل كيف يمكن تطوير هذا المشهد، الذي بدا لي مستقرا –أعني ثابتاً على دورة لا تتغير– حتى تلاحظ لي أن ردود فعل القوائم المعرضة للهجوم لم تعد سريعة ولا متعاقبة. واستنتجت أن «الراهبة» قد بدأت شجاعتها تخونها بسبب عدم كفاءة تكتيكها وأنها ستغير هذا التكتيك بالقطع. وبالفعل، بعد مضي أربع دقائق، توقفت بالمرة هجماتها الجانبية. وتخلى النمل في أعقاب ذلك عن رقبتها، وصدرها، وظهرها، وبقيت هي واقفة، جامدة، بمخالب راكعة، وجذع شبه مستقيم على القوائم الستة التي كانت ترتجف بوهن.

قال بول : «إنها تفكر» .

وبدا لي أن هذا التفكير قد طال نوعاً ما. وجعلني اختفاء النمل أقول لنفسي : أنام بغير عشاء، وأعرف سر المأساة.

أسفل الذيل المنقط للنمر الساكن، قام النمل بتوسيع حفرة الأرض الطبيعية، فكان هناك خط من النمل يدخل، وآخر يخرج، كما لو في مدخل أحد المحلات الكبيرة، عشية عيد الميلاد. كانت كل نملة تحمل غنيمتها.

وهؤلاء الحمالون المثابرون ينقلون أحشاء الراهبة.

كان النمر التعيس واقفاً جامداً، كما لو أنه يصغي، بنوع من التأمل والاستبطان لما يحدث داخل أحشائه، ولم يكن له من الوسائل، بفعل تكوينه الخلقي، أو مقدرته الصوتية، للتعبير عن التعذيب الذي يتعرض له، أو عن يأسه، كما لم يكن سقوطه على الأرض استعراضياً. ولم نفهم أنه مات إلا في اللحظة التي تخلّت فيها النملات المتشبثة بقوائمه عن تشبثها وبدأت في تفسيخ قشرتها الرهيفة التي كانت تغلفها. ونشر النمل الرقبة، وقطع الصدر في شرائح منتظمة، وفصل الأرجل، وفصّص أيضاً المخالب الرهيبة، بنفس الطريقة التي يستعملها الطباخون مع سرطانات البحر. وتم نقل كل ذلك إلى باطن الأرض، وتم تخزينه في عمق محلٍّ، بترتيب جديد.

لم يكن قد تبقى على الأرض سوى أغمدة الأجنحة الجميلة الخضراء، التي طارت زمنا فوق أدغال العشب، وأرعبت الفرائس والأعداء. لكنها كانت محتقرة من الحمالين، الذين أقروا في تعاسة بعدم صلاحيتها للأكل.

على هذا النحو انتهت «دراستنا» حول سلوك حشرة الراهبة، وحول «مثابرة» النمل «المجتهد».

– الحشرة المسكينة ! قال لي بول. لقد قُدِّر لها أن تعاني الخوف الشديد.

– هذا جزاؤها، قلت، فهي تأكل الجراد حياً، وكذلك الصراصير، بل حتى الفراشات. قال لك أبونا : إنها نمر. وأنا لا يعنيني خوف النمور.

٭ ٭ ٭

وبدأت دراسة علم الحشرات تضجرنا، عندما تكشَّف لنا ميلنا الحقيقي.

فعقب الغذاء، عندما كانت الشمس الحارقة تقذف بلهيبها العشب الجاف، لترغمنا على «القيلولة» في ظل التينة، مدة ساعة، فوق المقاعد التي تُطوى والمسماة «بعابرة المحيطات»، التي كان من العسير فتحها ونصبها في وضع سليم، والتي تعض أثناء ذلك على الأصابع بوحشية، وتتهاوى أحياناً تحت الناعس المصعوق.

كانت هذه الرّاحة بالنسبة لنا بمثابة التعذيب، لكن أبي، المعلم العظيم، الذي يعرف كيف يزين ما هو قبيح، جعلنا نستسلم لهذه الراحة بإعطائه لنا بعض أجزاء من مؤلفات فنيمور كوبر وجوستاف أيْمار لنقرأ فيها.

كان الصغير بول يفتح عينيه، ويفرج شفتيه، ويستمع لي وأنا أقرأ بصوت عالٍ قصة «الموهيكان الأخير». وقد أيقظت فينا هذه القصة الإحساس الذي تأكد لنا مع القصة التي تلتها، وهي قصة «قصّاص الأثر» : وهو أننا نحن أنفسنا الهنود الحمر، أبناء الغابة، وصائدوا الثيران البرية، وقتلة الدِّبَبَة المتوحشة، وشانقو الثعابين الكبيرة، وسالخو فراء رؤوس الوجوه البيضاء الباهتة اللون.

وقبلتْ أمي –بغير أن تسأل لماذا– أن تخيط لنا من مفرش قديم غطاء مثقبا، جعلنا منه «كوخنا» في الركن الأكثر بريّة من الحديقة.

كان لديّ قوسٌ حقيقي، جاءني مباشرة من العالم الجديد مروراً بمحل تاجر العاديات. فكنت أصنع السهام من البوص، وأختفي في الأكم، وأطلقها بوحشية على باب كوخ الغرف المنفصلة الواقع في طرف الممر. وكنت أسرق السكّين «الحادة» من درج المطبخ، وأمسك بها من طرفها المدبب، بين إبهامي والسبابة (على طريقة هنود الكومانش) وأقذف بها بكل قواي على جذع

صنوبرة، بينما يصفر بول صفيراً حاداً كصفير السلاح القاطع.

بهذا الشكل فهمنا سريعاً أن الحرب هي اللعبة الوحيدة المثيرة بالفعل، وأننا ليس بإمكاننا لكي نلعبها أن ننتمي لقبيلة واحدة. لذا ظللت أنا كومانش، وأصبح هو باوني. الأمر الذي مكّنني من سلخ فروة رأسه عدة مرات في اليوم. وكان هو بالمقابل. عند الغروب، يقتلني ببلطة من الكرتون، ويفرُّ في الحال مطلقا ساقيه للريح، لمهارتي في تمثيل الاحتضار.

كانت تيجان الريش قد صنعتها لنا خالتي مع أمي، وكنا نَطْلي وجوهنا بطلاء الحرب بواسطة الصمغ، والمربّى، وبودرة الطباشير الملون، مما أضفى واقعية ملائمة على هذه الحياة الهندية. وفي بعض الأحيان، كانت القبيلتان المتعاديتان تصرفان النظر عن الحرب فيما بينهما، وتتّحدان في صراع ضد أصحاب الوجوه الباهتة، من اليانكي القساة القادمين من الشمال. فكنا نتعقب الآثار المُتَخَيَّلة، ونحن نسير منحنين على مرتفعات العشب، مصغين لأصوات التقصُّف، ومتتبعين العلامات غير الواضحة، فكنت أتفحص بفزع خيطاً من الصوف معلقاً على العرف الذهبي لشجرة من أشجار الزيتون، وعندما كانت الآثار تزدوج كنا ننفصل ليتعقب كل منا جزءاً منها في صمت... ولكي نحافظ على الاتصال، من وقت لآخر، كنت أطلق صرخة طائر الشحرور المحاكي -كانت صرختي شديدة التقليد لصرخته عندما تهجره أنثاه- وكان بول يجيبني بالعواء المبحوح للذئب الصغير، وكان يقلده تماماً هو الآخر، إلا أنه - وهذا خطأ بالذئب - كان يقلد صوت كلب الخبَّازة، الأجرب، الذي كان يهبشنا أحياناً من سراويلنا.

ولقد حدث عدة مرات؛ أن تعقَّب خطانا تحالُفٌ من الصيادين، حملة «البنادق الطويلة». عندها، كنا نسير طويلاً متراجعين للخلف، لكي نترك له آثاراً معكوسة.

بعد ذلك، وعند فتحة ماء كنت أوقف بول مشيراً له بحركة من يدي، وأتمدد في صمت مطبق، مصغياً بأذني للأرض... وكنت أستمع بقلق حقيقي، لأصوات الذين يلاحقوننا، في قلب الغابة البعيدة، لأنني كنت أتسمع أصوات خفق قلبي، وكنا نستكمل اللعبة عند عودتنا للبيت.

كنا نفرد الغطاء على التينة. وكان أبي يتمدد في مقعد، يقرأ في نصف جريدة، لأن عمي يقرأ نصفها الآخر. وكنا نقوم أنفسنا، بوقار واعتداد، كما لو أننا زعماء هنود مدعوون ضيوفاً عليهم ، فكنت أبربر : «أوغ» !

– أوغ !

– هل يرغب الزعماء البيض العظام في استقبال إخوتهم الحمر في كهفهم الحجري ؟

– أهلا بإخوتنا الحمر، يقول أبي، الذين لا شك عانوا من طول الطريق، لأن أقدامهم تبدو مغبرة.

– لقد جئنا من عند النهر البعيد، وتكبدنا مسيرة ثلاث ليال قمرية !

– كل أطفال الإله مانيتو العظيم إخوة، ولكن لكي يشاركنا الزعماء ثريدنا! نحن نطلب منهم فقط احترام التقاليد المقدسة للبيض، أي أن يذهبوا أولا يغلسوا أيديهم ! .

◊ ◊ ◊

وفي المساء، أمام الطاولة، وتحت مصباح «العاصفة» المحاط بهالات الهاموش، كنت أستمع إلى المحادثات التي تدور بين عمي وأبي، وأنا أهز قدمي الثقيلتين من التعب، أمام أمي الجميلة.

كانوا يتناقشون معظم الوقت في السياسة. فيعقد عمي مقارنة غير ضرورية بين السيد فاليير والملك لويس الرابع عشر. ويرد أبي متحدثاً بطريقة قادة المظاهرات، وهو يصف كاردينالاً أصبح جسده شبيها بعلامة الاستفهام، بعدما حبسه الملك في قفص من الحديد.

وكان العم، أحياناً، يهاجم الناس المدعوين «بالراديكاليين». وكان يوجد في تلك الحقبة رجل يدعى السيد «كومبل» وكان راديكاليا، وكان من الصعب عليه تكوين رأي. فكان أبي يقول إن هذا الراديكالي رجل شديد الأمانة، بينما كان عمي يدعوه «بخلاصة النذالة» قائلاً: إنه يبصم بالعشرة على ذلك. مضيفاً أن هذه ال«كومبل» زعيم عصابة من المخربين، يدعون بالمحفل الماسوني.

وكان أبي يعقب على ذلك بالحديث عن عصابة أخرى، تدعى بـ «اليسوعيين» أعضاؤها نماذج مرعبة من تارتوف موليير، يقومون بحفر السراديب تحت أقدام كل الناس. ساعتها، كان العم جول يقدح شرراً، ويطالب بإعادة «المليار فرنك الذي نهب من الهيئات الدينية». وكان أبي، على إفلاسه، يجيب بحزم: «يستحيل! يستحيل أن نعيد لكم مثل هذه الثروة، التي انتزعتموها من على أسرّة الموتى والمحتضرين بالإرهاب!»

وعندما كانت المناقشة تصل إلى هذا الحد، كانت أمي وخالتي تتدخلان بأن تطرحا عليهما أسئلة غير ملحة حول البراغيث بمنطقة روسيّون، أو حول التعيين غير المناسب لأحد المعلمين بالمدرسة العليا، وتلطف المناقشة من حدتها دفعة واحدة. لكن ما كانوا يقولونه في هذه الأمور، لم يكن يثير اهتمامي. كان

ما أسمعه، وما أترقبه، هو الكلمات، فقد كنت أهوى المفردات، وكنت أجمعها، سراً، في كراسة صغيرة، كما يجمع الآخرون طوابع البريد.

كنت أحب الكلمات التي على شاكلة قنبلة، دخان، فظ، منخور، وقبل كل شيء كلمة مانيفللا (ذراع الآلة). وكنت غالباً ما أردد هذه الكلمات لنفسي، عندما أكون وحدي، لمتعة أن أستمع إليها.

وكان في حديث العم جول، كلمات جديدة على سمعي للغاية، ولطيفة مثل، مدمشق (أي مرَصَّع)، منتقى، أو الكلمات المعظمّة مثل أسقفي،

ومفوض. فعندما كنت ألمح أيًا من هذه السفائن الفخمة في نهر حديثه، كنت أرفع يدي وأسأل عن معناها، وهو الأمر الذي كان يجيب عليه بسرور.

وهكذا فهمت ، للمرة الأولى أن الكلمات ذات الجرس النبيل، تتضمن دائما تعابير جميلة.

وشجَّع أبي وعمي هذا الميل المفرط عندي، فقد بدا لهما بشرى طيبة، إلى أن حدث ذات يوم، وبدون مناسبة من حديث (وكان ذلك مفاجأة لي). أن أعطوني كلمة لكي أكتبها في (نوتة البقال) التي أحتفظ بها في جيبي هذه، وكانت الكلمة هي كلمة لادستوري التي أملياها عليَّ وهم يعرِّفونني أنها أطول كلمة في اللغة الفرنسية.

وكتبتها، بمعاناة شديدة، على صفحة من الكراس، وكنت أقرأها في سريري كل مساء، ولم أتمكن إلا عبر عدة أيام من حفظ هذه الكلمة المخيفة، وقررت في نفسي أن أستغلها، لو أنه حدث لي يوما، بمصادفة ما، في نهاية العمر، أن أرغموني على العودة للمدرسة، بأن أقول : هذا أمرٌ لا دستوري.

◇ ◇ ◇

نحو العاشر من أغسطس، توقفت الإجازة لبعد ظهر كامل، بسبب قصف رعد وبرق، ظل يتوالد كما لو أنه الذعر نفسه، الأمر الذي جعلني أتعرض لحصة إملاء. كان العم جول جالساً على مقعد مريح بالقرب من الباب الزجاجي، يقرأ جريدة. وكان بول يتقلب في ركن ظليل، يلاعب نفسه الدومينو، يرصّ القطع جوار بعضها كيفما اتفق، بعد نوع من التفكير ومناجاة النفس. وكانت أمي تحيك إلى جوار النافذة، حين شرع أبي ، الجالس أمام الطاولة يشحذ سن مدية على حجر أسود، في الإملاء عليّ بصوت عال، وهو يعيد كل جملة لمرتين أو ثلاثة، في ذلك النص الغامض.

كان النص عبارة عن خطبة وعظ للفيلسوف الكاهن لامينيه، يحكي فيها مغامرة عنقود عنب.

كان رب البيت قد قطع العنقود من كرمته، لكنه لم يأكله ! وعاد به للبيت، ليعطيه لربة المنزل. وهذه بدورها، أعطته في الخفاء، بتأثر شديد، لابنها الوحيد، الذي، بغير أن يقول شيئاً لأحد، أعطاه لأخته. لكن هذه الأخيرة لم تلمس العنقود هي الأخرى، فقد انتظرت الأب، الذي وجد عند عودته العنقود في صحنه. فضم كل العائلة بين ذراعيه، وهو يرفع عينيه للسماء.

انتهت رحلة العنقود على هذا النحو. وتساءلت ما إذا كانوا قد أكلوه، حين أرخى العم بول جريدته، وقال لي بصوت أجش :

– هذه الصفحة عليك أن تحفظها عن ظهر قلب.

وأصابني السخط لهذا العرض العدواني بالعمل الإضافي، فسألت :

– لماذا ؟

– عجباً ! قال العم. ألم تؤثر فيك هذه المشاعر لدى هؤلاء الفلاحين البسطاء ؟

وراقبت من وراء النافذة. المطر المتساقط، الذي اسودت بتأثيره أغصان شجرة التين، وعضضت على طرف الريشة. وألح العم :

– لماذا قام هذا العنقود بدورة كاملة على العائلة فرداً فرداً ؟

ونظر إليّ بعينيه المليئتين بالطيبة، وأردت أن أسعده، فركزت كل اهتمامي على هذه المشكلة، وفي لمعة خاطفة، وضح أمامي السبب، فصحت :

– لأن نسبة الأملاح الكبريتية به عالية !

وثبت العم جول عينيه عليّ، وضغط على أسنانه، واحمر وجهه، كان يريد الكلام لكن السخط قطع أنفاسه. وتوقفت الكلمات في حلقه، فقد انفلتت من حنجرته ثلاثة أو أربعة مقاطع حلقومية، لم تكن تعبر، رغماً عنه، عن معنى محدد. عندها، رفع ذراعيه مشوحاً بهما لأعلى، ونهض عن مقعده، وهو يقول صارخاً :

– هكذا ! وكررها ثلاث مرات...

وفتحت صرخات التعجب هذه حنجرته، فتمكن في النهاية من الصياح !

– هذه هي النتيجة التي نحصل عليها من المدارس الإلحادية فالأفعال العظيمة الناتجة عن المحبّة ينسبها للخشية من الأملاح الكبريتية ! هذا الطفل، الذي ليس وحشا، أجاب بعفوية إجابة متوحشة. فانظر وقدّر، يا عزيزي جوزيف، مدى ضخامة مسؤوليتك المرعبة.

– ولكن، يا جول، قالت أمي، أحسب أنه قال ذلك للضحك!

– للضحك ؟ صاح العم. هذا ألعن !... أنا أفضل الاعتقاد بأنه لم يفهم سؤالي. واستدار ناحيتي.

– إسمعني جيداً. إذا أنت وجدت عنقوداً كبيراً من العنب، عنقوداً جميلاً،

فريداً، هل ستحمله إلى أمك ؟

– نعم سأفعل ! قلت بجدية.

– برافو ! قال العم. هذا كلامٌ نابع من القلب ! ... وتحول ناحية أبي، ليضيف : إنني سعيد بأنه على الرغم من المادية الشنيعة التي تلقّنها له، وجد في قلبه ناموس الرب، واحتفظ بالعنقود لأمه !

ووجدته مزهوا بانتصاره، فهرعت لنجدة أبي، وقلت :

– لكنني سآكل نصفه في الطريق.

وحاول العم، غير المسرور، معاودة الحديث، في الوقت الذي صاح فيه أبي بقوة: لديه حق ! فلو أن هؤلاء الناس كانت لديهم مثل هذه المشاعر الطيبة، لكان عليهم أن يؤثروا الآخرين بقلب الخس، ولحم الفراخ العتاقي، وأكباد الأرانب، وأن يكفوا عن التمتع بالملذات الذي صار شيئاً ملازماً لحياتهم، في الوقت الذي يظل فيه البشر التعساء –الذين بحاجة للغذاء– يتعاركون على رؤوس البط، وعظم اللحم، وبقايا الكرنب. لقد فهمت بفضله، أن هذه القصة مصدرها بلاهة دينية، وحقيقة الأمر أن السيد لامينيه الذي تعتد به شخص منافق، سَقَطَ، مثله مثل كل القساوسة، لكي يضلل المؤمنين، في تكرار سخيف للمواعظ.

وعندما وصل الهجوم إلى حد المجابهة هذا، وتأهب العم، الذي انتفش شاربه، للرد بعنف، أحسست الخالة روز، التي كانت تتابع في المطبخ طهو يخنة أرنب، بحلول المعركة، فبرزت إلى الباب. ولوحت بسلة خسٍ، وهي تمسك في يسراها قلنسوة مطر سوداء من قماش مشمع وصاحت بجذل :

– جول ! لقد كف المطر تقريباً ! أسرع إلى الحلزونات.

وبغير أن تمهله ثانية واحدة. وضعت في يده السلة، ومدت القلنسوة حتى

فتحتي أنفه، كما لو أنها كانت تطفئ المحادثة. وكان صعباً عليه وهو مدجّجٌ بكل هذه المعدات، أن يشرع في المهاترة. لكنه مع ذلك حاول أن يلوك بعض حروف الراء وأن يسمعها لنا :

– بكل صراحة هذا أمر مرير ومرعب... مسكين هذا الصغير...

لكن خالتي التي استدارت ضاحكة، دفعت به للخارج تحت المطر الغزير، ثم أغلقت الباب. وبعثت إليه، عبر الزجاج، قبلة، كانت الرقة فيها حقيقية وغير متكلفة. بعد ذلك اعتدلت نحونا فجأة، غاضبة، وقالت :

– جوزيف، كان عليك تجنب هذا.

ولم يعد العم جول، الذي كان يحب المطر، إلا بعد ساعة، مبتلاً ولكن سعيداً. كان خيط من اللعاب يسيل من سلة الخس، وقد جمع العم جول حمل كتف من الحلزونات، كان أكبرها –الذي كان ضخماً حقاً– يصوب قرنيه عبثاً نحو رأس القلنسوة السوداء.

كان أبي يعزف بالصفارة، وأمي تستمع إليه وهي تمخط في المنديل، بينما كانت الأخت الصغيرة نائمة على كوعيها، وكنت ألعب دور دومينو مع بول. وغمرنا العم جول بالتهاني على جمعه لهذه الحلزونات، ولم يثر هو موضوع لامينيه.

لكنه في المساء، وعلى العشاء، انتقم انتقاماً متوحشاً.

وضعت أمي على الطاولة يخنة الأرنب، محاطة بهالة من الروائح المشهية. وفي العادة، وبسبب من مجهودي المدرسي، كانت كبد الأرنب تحجز لي، فبحثت عنها بعيني في الصلصة المخملية الناعمة. ورآها العم جول قبلي، فالتقطها بطرف شوكته، ورفعها إلى ضوء المصباح وراح يتفحصها، ويشمها، ثم قال :

– هذه الكبد مطهوة بطريقة رائعة، إنها سليمة وكاملة، وتوحي بأنها ناعمة وطرية، فهي بالتأكيد قطعة متميزة. ويتوجب عليّ أن أهديها لشخص، إذا لم يكن أحد على الطاولة يتصور أنها مسمومة مثلاً ! وعقب ذلك، انفجر في ضحكة ساخرة، والتهم الكبد، أمام عيني.

۞ ۞ ۞

حوالي الخامس عشر من أغسطس، تبين لنا أن أحداثاً عظيمة ستحدث.

فذات بعد ظهر، وبينما كنت مشغولاً بدق وتد تعذيب على ربوة معشوشبة، جاء بول مُهْرولاً يزف لي خبراً غريباً :

– العم جول يطبخ !

وأصابتني الدهشة حتى أنني تركت في التو ما كنت أفعله لكي أذهب وأستجلي أعجوبة العم جول – الطباخ.

كان واقفا أمام الموقد، يراقب مقلاة تطشطش، كانت تحتوي أقراصاً ثخينة بيضاء. تسويها على مهل وهي تصفر خفيفاً في الدهن المغلي. وكانت رائحة منفرة تملأ المطبخ، فقررت على الفور ألا آكل اليوم.

– عم جول، ما هذا ؟

– ستعرفه هذا المساء. قال . وممسكا بيد المقلاة، هزها هزة خفيفة، بمثل ما نفعل عندما نشوي أبا فَرْوَةَ.

– هل سنأكله هذا المساء ؟ سأل بول.

– لا، قال العم ضاحكا. لن نأكله. لا هذا المساء ولا في أيّ وقت آخر.

– لماذا إذن تسويه ؟

– لكي تكون حديثاً للأولاد الصغار. هيا الآن، اذهبوا والعبوا خارجاً. فلو أصابكم رشاش الدهن المغلي، سيبقع جلدكم مدى الحياة. هيا، اذهبوا من هنا!

٭ ٭ ٭

حين صرنا في الخارج، قال لي بول : إنه لا يعرف الطبخ.

– أتصور أن ما يفعله ليس طبيخاً. ويخيل لي أنه سر. سوف نسأل أبي في هذا الموضوع.

لكن أبي لم يكن موجودا. فقد ذهب مع زوجته، في نزهة. ذهبا بغير أن يصطحبانا، وهو ما بدا لي خيانة. لذا فقد توجب علينا أن ننتظر حتى المساء. وكرست كل بعد الظهر لتأليف مرثية لطيفة لزعيم كومانش (كلمات وموسيقى)

وداعا أيهًا المرج الرحيب

فذلك السّهم الغريب

قد أشل ذراعي المنتقم

لكنني تحت التعذيب

ظل قلبي طاهرا

يدهش المسافرا

أيها «الباوني»الأجبن

إني أراك تتفنن

وأنا أضحك منك وأسخر

وعلى تعذيبك أتمسخر

فأنا منه لا أهاب

كأنه لدغ الذباب

وكانت المرثاة من سبعة أو ثمانية أبيات... وصعدت لحجرتي، وأخذت أتدرب على حفظها في سكون وانفراد. بعدها عكفت على طلاء وجه بول بطلاء الحرب، ثم على طلاء وجهي، وأخيراً، توجهت في وقار، يدي خلف ظهري، وعلى رأسي تاج الريش، نحو عامود التعذيب، وربطني بول إليه بشدة، وهو يصرخ بضع صرخات مبحوحة، تعبر عن السباب بطريقة الباوني. ثم راح يرقص حولي رقصة وحشية، على حين بدأت أنا في إنشاد أنشودة الموت.

كنت أؤدي دوري بجدية شديدة، ونجحت تماماً في تمثيل بعض «الضحكات الهازئة» بما جعل جلادي يبتعد عني بنوع من الحيطة، وينتابه بعض القلق وبلغ انتصاري أوجه مع الأبيات الأخيرة :

وداعا يا إخوتي

وداعا يا أزهار الربيع !

وداعا يا فرسي ويا أعنّتي

واسوا أمي التي تبكي

قولوا لها إنه منذ حين

مات ابنها ميتة المقاتلين !

ثم زغردت زغرودة هندية مؤثرة، جعلتني أنا نفسي تهيج أشجاني، فبكيت حتى غطت الدموع وجهي، عند ذلك، تركت هامتي تسقط على صدري، وأغمضت عيني، ومت. وسمعت صرخة متألمة، ولمحت بول، يصيح وهو يفر :

– لقد مات !! لقد مات !

كان أبي هو الذي جاء بعد هذا ليفكّني، ولاحظت أنه رغب في أن يضفي على عذاباتي الخيالية مسحة حقيقية. ولكني كنت فخوراً بنجاحي في التمثيل، وعزمت بيني وبين نفسي على أن أعيد المشهد بعد العشاء، لكني وجدت مفاجأة لطيفة، أثناء مروري بقاعة الطعام، وأنا ذاهب لغسل يدي في المطبخ.

كان أبي والعم جول قد ركّبا كل وصلات الطاولة الإضافية، وغطوها بمفرش من المشمع. وكانت مرصوصة على هذه المساحة الكبيرة كل أنواع الأعاجيب، فكانت عليها أولا صفوف من الخراطيش الفارغة، كل صفٍّ منها له لونه : أحمر، أو أصفر، أو أزرق، أو أخضر.

وكانت، إلى جوار ذلك، أكياس قماشية، بحجم كف اليد، ثقيلة كالأحجار، كتب على كل منها رقم واضح من هذه الأرقام ك ٢، ٤، ٥، ٧، ٩، ١٠.

كما كان هناك أيضاً ميزانٌ صغيرٌ، بكفّة واحدة، معلق بمشبك على حافة الطاولة، وآلة غريبة نحاسية، ذات ذراع له زرٌّ خشبيٌّ، ثم كان يتصدر كل هذا في منتصف الطاولة، الطبق الذي طهاه العم جول.

– هاكم ما طهوته هذا الصباح ؟ إنها الحشوات السميكة .

– ولأي شيء هذه ؟ سأل بول .

– لعمل الطلقات ! قال أبي .

– هل أنت ذاهب للصيد ؟ سألت أنا .

– بالضبط !

– هل لديك بندقية ؟

– نعم !

– وأين هي ؟

– ستراها بعد قليل! أما الآن، فاذهب واغسل يديك،لأن الحساء قد غُرِف!

‹› ‹› ‹›

صار الحديث مشوقاً، أثناء العشاء. تحت شجرة التين. فلم يكن أبي، طفل المدن، وسجين المدارس، قد قتل في حياته حيواناً أو طائراً، لكن العم جول كان يصطاد منذ نعومة أظفاره. ولم يكن الأمر غامضاً عليه. وعندما بدأنا في تناول الحساء، شرع في الحديث عن الطرائد.

– ما الذي تعتقد أننا سنجده في التلال، قال أبي .

– لقد تقصيت عن ذلك في القرية، قال العم .

– وبالطبع أعطوك معلومات خاطئة، رد أبي، فهؤلاء الفلاحون يغارون من الصيد.

وابتسم عمي ابتسامة ماكرة.

– طبعا ! قال. ولكنني لم أفصح عن أننا سنذهب للصيد ! فقد سألتهم فحسب أي نوع من طرائد الصيد يمكنهم بيعه لنا !

– هذا هو المكر بعينه ! قال أبي .

وشعرت بالإعجاب لهذه المهارة، ولكن بدا لي أنها منافية لمبادئنا.

– وماذا قال لك الفلاحون ؟

– قالوا لي أولاً إنه توجد منها طيور صغيرة.

– صغيرة ؟ استفسر أبي، كمن صدم.

– أجل ! قال العم . فهؤلاء المتوحشون يقتلون كل ما يطير.

– هل يقتلون الفراشات ؟ سأل بول .

– لا . فالفراشات تعاني الجفاف، قال أبي. فما الذي يمكنهم زرعه وحصده بغير ماء ؟ فهم في عمومهم فقراء جداً، والصيد يعينهم على الحياة، لذا يبيعون الطيور الكبيرة، ويأكلون الصغيرة !

– وبدون أن نسهب في الحديث عن أنواعها، قال العم، فالعصافير الصغيرة المشوية...

– على أية حال، قالت خالتي، أنا أمنعك من قتل عصافير الكناريا !

– لا الكناريا، ولا الببغاوات، أقسم لك... لكنني سأصطاد طير «أبيض العجيزة» وبلبل الشعير «الأرطلان» .

– الأرطلان لذيذ، قالت خالتي...

– وطير الدُّج ؟ قال العم، وهو يغمز بعينه.

– هل تسمحون لنا بصيد الدُّج ؟

– بالطبع ! قالت أمي. جوزيف يعرف جيداً كيف يشويها. لقد أكلنا منها في العام الماضي بعيد الميلاد.

– أنا، قال بول بحماس، إذا وجدت دُجَّة. آكلها كلها ! ولكني لا آكل رأسها.

– أتصور، قال العم . إننا يمكن أن نجد الأرانب.

– نعم نعم ! قلت. فهي موجودة حتى على مقربة من البيت هنا. فهي تأتي لقضاء حاجاتها قريباً من شجرة اللوز. وتملأها ضراطاً.

– تخيَّر ألفاظك، قالت أمي لي بقسوة.

– ثم إننا، تابع العم، سنجد بالتأكيد طيور الحجل، والأكثر من هذا، طيور الحجل الحمراء.

– أهي حمراء كلها ؟

– لا، بل بنية فاتحة، لها رقبة سوداء، وأرجل حمراء، وريش أحمر في الأجنحة وعند الذيل.

– سيكون هذا بديعاً للتيجان الهندية !

– لقد حدثوني عن الأرانب البرية !

– مع ذلك، قال أبي، ففرانسوا أكد لي أنه لا يوجد شيء منها.

– أعطه إذن ستة فرنكات ثمناً لواحد منها وسترى أنه سيحضره لك! فهم يبيعونها بخمسة فرنكات في فندق بيشواري ! وآمل أن تجنبنا بنادقنا تعاسة أن ندفع فيها هذا المبلغ.

– سيكون هذا شيئاً جميلاً، قال أبي .

– كما تقول، يا عزيزي جوزيف، فطلقة جميلة سوف توفر علينا هذا العناء. لكنه يوجد كذلك ما هو أكثر إثارة، ففي وادي التأومي. على مقربة من هنا. يعيش ملك الطرائد.

– ومن هو ؟

– خمّن ! قال العم.

– الفيل ! صاح بول.

– لا ! قال العم. لكنه أمام إحباط الأخ الصغير، أضاف : أنا لا أعتقد أنه توجد أفيال، ولكنني على كل حال لست متأكداً. هيا يا جوزيف، ابذل جهدا صغيراً إنه الطريدة النادرة، أجمل الطرائد، وأكثرها مكراً فما هي ؟ ما هي الطريدة التي يحلم بها كل صياد ؟

وتدخلت في الحديث :

– وما لونها ؟

– بنية، حمراء، ذهبية.

– الدّراج ! صاح أبي.

لكن العم، الذي نفى هازاً رأسه، أضاف :

– تبا له ! ... الدُّراج جميل نعم، أوافق معك –لكنه في الأصل داجن، ومن السهل التصويب عليه عن التصويب على هدف يطير، ومن وجهة نظر الذّوّاقة، فإن لحمه قاس ولا طعم له، ولكي تجعله يؤكل، لا بد من تركه «يدرج» أي يفسد قليلاً !... لا ليس الدرّاج ملك الطرائد.

– طيب، قال أبي، ما هو إذن ملك الطرائد ؟

ونهض العم، عاقدا يديه على صدره، وقال : الحجل الرومي !

ولكي ينطق هذا الاسم، فخَّم من نطقه، وهو يفتح عينين منبهرتين. ومع هذا لم يحدث الأثر الذي انتظره، لأن أبي سأل :

– وما هذا ؟ ولم يضطرب العم أدنى اضطراب.

– انظروا، صاح بنغمة رضا، فهذه الطريدة نادرة لدرجة أن جوزيف نفسه، لم يسمع بها من قبل ! ... حسناً، الحجل الرومي هو الحجل الملكي، وهو النوع الأكثر سُمُوًّا في الحجل، لأنه ضخم وزاهي اللون. إنه أشبه بالديك الذي يعيش في حلنجات الأراضي الرملية، بالمرتفعات والأودية الصخرية –ولكنه حذر كالثعلب، فهو يسير في أزواج شديدة الاحتراس، ومن الصعب جداً الاقتراب منه.

– أنا، قال بول، أعرف ما يجب عمله في هذه الحالة. فسوف أتمدد على بطني وأزحف كالثعبان، بدون أن أتنفس، فأقترب منه بغير أن يحس بي !

– هذه فكرة جيدة، قال العم جول، سوف نأتي لنستعين بك، عندما نقع على الحجل الرومي.

– ألم تصطده أنت قبلاً ؟ سألت أمي.

– لا ، قال العم بهيئة المتواضع، لقد صادفته عدة مرات في وادي البيرينيه الأسفل، ولم أتمكن من إصابته.

– ولكن من قال لك: إنه يوجد حجل رومي هنا ؟

– إنه الصياد المخالف المدعو موند دي باربيون.

وسألت :

– أهو من أصل نبيل ؟

– لا أعتقد، قال أبي، فاسمه هذا تحريف لاسم : إدموند دي بابيون.

وأسعدني هذا الاسم، وعزمت على أن أتعرف على هذا السيد الغامض.

– لقد اصطاد بنفسه واحداً منها في العام الماضي، وباعه في المدينة بعشرة فرنكات.

– يا إلهي ! قالت أمي وهي تعقد يديها. فلو أنك تمكنت من صيد واحد منها في اليوم... سيصلح الحال تماماً !

– هذا ليس فقط حلم الصياد، قال أبي: بل هو أيضا هَوَسُ ربات البيوت !

لا تحدثنا ثانية عن الحجل الرومي يا عزيزي جول، لأنني سأحلم به هذه الليلة، وستفقد زوجتي العزيزة عقلها !

– إن ما يكدرني ويقلقني، قالت الخالة روز، أن الخادمة قالت لي إنه توجد أيضا خنازير برية في هذه الأنحاء.

– خنازير برية، قالت أمي فزعة.

– نعم نعم، قال العم مبتسماً... ولكن إطمئني، فهي لا تجيء حتى هنا ! فهي فقط عندما يشتد الصيف، وتجف الينابيع في سلسلة جبال سان فكتوار، تنزل حتى نافورة (بئر التوتة)، لأنها النبع الوحيد في الإقليم الذي لا يجف أبداً. لقد قتل باتيستا اثنين منها في العام الماضي !

– لكن هذا مخيف ! قالت أمي.

– على الإطلاق ! قال جوزيف مطمئنا إياها، فالخنزير البرّي لا يهاجم الإنسان، بل هو على العكس يهرب منه من على البعد، ولابد من الحيطة لكي يستطيع الصياد الاقتراب منه.

– كالحجل الرومي ! صاح بول.

– بشرط، قال العم في نغمة وقار، ألا يكون الخنزير جريحاً !

– هل تعتقد أن بإمكانه في هذه الحالة أن يقتل رجلاً ؟

– عجباً ! صاح العم... كان لي صديق –رفيق صيد– يدعى مالبوسكيه، وكان حطاباً قديماً، صار أكتع، بسبب حادثة عمل.

– وما الأكتع ؟ سأل بول .

– هو الذي فقد إحدى ذراعيه. ولأن مالبوسكيه لم يستطع بسبب ذلك أن يواصل العمل كحطاب، لأنه لم يعد يقدر على الإمساك بالبلطة، تحول إلى الصيد وأصبح صيّاداً مخالفاً.

– نعم... بذراع واحدة ! وأؤكد لك أنه كان ماهراً في التصويب ! فكان يعود كل يوم بطيور الحجل، والأرانب، والأرانب البرية التي كان يبيعها في السر لطباخ القصر. وذات يوم، وجد مالبوسكيه نفسه وجهاً لوجه أمام خنزير برّي –ليس بشديد الضخامة– يزن سبعين كيلوجراماً بالضبط، فقد وزناه فيما بعد. وكان مالبوسكيه قد حاول صيده، وصوب عليه، ولم يخطئه، لكن الحيوان كان قويا بحيث أمسك به، وأوقعه أرضاً ومزّقه إرباً. نعم، إرباً، كررّ عمّي. فعندما وجدناه، رأينا في بادئ الأمر بمنتصف الطريق إليه، حبلاً طويلاً أصفر، مائلاً للخضرة، طوله حوالي عشرة أمتار، وكان هذا الحبل أمعاء مالبوسكيه.

وصاحت أمي وخالتي باشمئزاز: أوف. بينما أنفجر بول في الضحك، وهو يخبط بيديه.

– جول، قالت خالتي، لا يجب أن تحكي أشياء كريهة أمام الأطفال.

– على العكس ! قال أبي (الذي كان يجد قيمة تعليمية في كل كارثة)، فهذا شيء طيب ليتعلموه، لأن من المستحسن أن يعرفوا أن الخنزير البرّي حيوان خطر ؛ فإذا ما حدث لكم يا أولاد، عن طريق المعجزة، أن رأيتم واحداً منها، تسلقوا الشجرة القريبة منكم في الحال.

– جوزيف، قالت أمي، عِدْني أنت الآخر أن تتسلق الشجرة، وألا تطلق عليه طلقة واحدة.

– سيكون مشهده بديعا على هذا النحو، صاح العم. ولكني أريد أن أقول لكم إن مالبوسكيه لم يكن لديه رصاص قوي، كالذي لدينا.

وذهب وفتح درجاً أخرج منه حفنة من الخراطيش، وضعها على الطاولة.

– هي خراطيش أطول من العادية، وقد حشوتها بعبوة مضاعفة من البارود، قال، وبفضلها سيخرُّ الحيوان صريعاً في التو... بشرط، أضاف وهو يوجه الحديث لأبي، أن تصيبه على الأقل في جانبه الأيسر، وانتبه جيداً يا جوزيف... قلت الأيسر.

– لكنه، قال بول، إذا كان يعدو أمامك، فلن ترى سوى فخذيه، فما العمل في هذه الحالة ؟

– ليس هناك أبسط من هذا، ويدهشني أنك لم تخمنه !

– أن نصوب على فخذه الأيسر ؟

– إطلاقاً، قال العم، يكفيك فقط أن تعرف أن الخنزير البري مولع بالشيكولاتة...

– وماذا بعد ؟ سألت أمي باهتمام شديد.

– انظري يا أوجستين، قال العم، ستنحنين على جانبك الأيسر، وتصيحين

–بكل قواك– في اتجاه اليسار : آه ! الشيكولاتة اللذيذة . عندها سيستدير الخنزير البرّي المفتون، مرتكزا على جانبه الأيسر، ويقدم لك بهذ الشكل كتفه

الأيسر.

وانفجرنا أنا وأمي ضاحكين، وتبسم أبي. وأعلن بول :

– أنت تقول ذلك للضحك !

– لكنه لم يضحك، فلم يكن متأكداً من شيء.

◇ ◇ ◇

هذا العشاء الصيّدي دام أكثر طويلاً من المعتاد، وقمنا من على الطاولة، ليشرع أبي وعمي في عمل عبوات الرصاص. وأعلنت عن رغبتي في أن أشهد هذا العمل، لأنني لاحظت أنه سيكون «درساً مفيداً» .

– نصف ساعة، لا أكثر، قالت أمي ؛ وحملت بول، الذي راح يئن باحتجاجات واهنة، وهو غارق في نومه.

– قبل كل شيء، قال العم، لنتفحص الأسلحة !

وذهب وأحضر، من دولاب الصحون، قراباً من جلد أشقر، كان موضوعاً خلف الأطباق (مما أشعرني بالخزي الشديد لأنني لم أكتشفه قبلا) ، وسحب منه بندقية جميلة للغاية، بدا عليها أنها جديدة لم تستعمل. كانت ماسورتاها سوداوين سواداً جميلاً غير لامع، وكان زنادها مطلياً طلاءً معدنياً، وعلى قائمها الخشبي المنحوت، صورة كلب مقْعٍ، محفورة في الخشب اللامع المدهون. وأمسك أبي ببندقية العم، وتفحصها، وصفر صفرة إعجاب قصيرة.

– هي هدية الزواج من أخي الكبير، قال العم، عيار ستة عشر من نوع

فيرني كارون. بزناد مركزي.

وأخذ البندقية، وفك مفصلها، فانفتح السلاح مصدراً صوت تكة لطيفة، وراح العم يحدق في الماسورتين بمواجهة المصباح.

– إنها مشحمة جيداً، قال. لكننا سنرى ذلك في الغد بشكل أوضح.

واستدار ناحية أبي وقال :

– أين بندقيتك ؟

– في الغرفة.

ومضى بخطوات واسعة.

كنت أجهل أنه يمتلك بندقية، وشعرت بالسخط لأنه احتفظ لنفسه بسر جميل كهذا، وانتظرت عودته بلهفة، وحاولت أن أخمن من صوت خطواته، وصرير المفتاح، المكان الذي خبأها فيه. لكن هذا التّنصُّت أفضى إلى هباء، وسمعته يهبط بخطوات متعجلة.

كان يحمل قراباً كبيراً أصفر، اشتراه –بغير علمي– من تاجر العاديات، لأن الخدوش الكبيرة التي كانت به تدل على قدمه، وتشي بعمقها المائل للبياض بأن هذا الشيء كان من عمل صانع ورق مكبوس.

وفتح هذه المسخة الكرتونية، وهو يقول، بابتسامة مقطبة بعض الشيء :

– ستكون هذه شيئا مسكينا للغاية، بالنسبة لسلاح حديث كالذي معك، لكن أبي هو الذي كان قد أعطاني إياها.

وبعد أن أضفى بهذا الشكل على هذه البندقية الرديئة العتيقة، صورة الذكرى العائلية المحترمة، سحب من القراب ثلاثة أجزاء لبندقية هائلة الحجم. وأخذها العم، وركبها، وجرب زنادها في سرعة خاطفة، وصاح أمام طول

السلاح.

– يا إلهي ! إنها قربينة.

– تقريباً، قال أبي، لكن يبدو أنها محكمة جداً.

– ليس هذا شيئاً مستحيلاً، قال العم .

لم يكن قائمها الخشبي منحوتاً، وكان قد فقد طلاءه، ولم يكن زنادها مطلياً، وكانت إبر الضرب بها كبيرة كأنها من صنع ورشة حدادة، وشعرت بعض الشيء بالإهانة. وفتح العم جول البندقية، وتفحصها بطريقة مقطبة.

– لو لم تكن هذه البندقية من عيار صار مجهولاً، فستكون من عيار ١٢ !

– نعم، هي من عيار ١٢ ، أكّد أبي، وقد اشتريت لها أظرفاً عيار ١٢ !

– مدببة. بالطبع.

– أجل مدببة.

وأخرج من علبة كرتونية ظرفين أو ثلاثة فارغة، ومد يده بها للعم. كانت الأظرف تبرز من قواعدها النحاسية مسامير صغيرة مدببة، ودفع العم بواحد منها في ماسورة البندقية.

– هي طويلة بعض الشيء، قال. لكنها بالفعل من عيار ١٢ مدبب... هذا النوع عفا عليه الدهر منذ وقت طويل، لأنه كان خطراً نوعاً ما.

– أي من النوع الخطر ؟ سألت أمي.

– خطر بسيط، قال العم، لكنه خطر على كل حال. انتبهي جيداً يا أوجستين، فنحن عندما نضرب على الزناد تخرج إبرة الضرب لتضرب هذا المسمار الصغير النحاسي في قاعدة الظرف ليشعل الحريق في البارود. لكن هذا المسمار الصغير يظل للخارج كما ترين، فلا يحميه شيء، ومن المحتمل أن

يتعرض لضغطة غير محسوب حسابها.

– مثل ماذا على سبيل المثال ؟

– على سبيل المثال... إذا سقطت طلقة من أصابع الصياد، وصادف أن وقعت على طرفها المدبب، فربما انفجرت عند قدميه.

– هذا شيء لن يكون قاتلاً، قال جوزيف بنغمة مطمئنة. ثم إنني لن يحدث أبداً أن أترك طلقة تسقط مني.

– ومع هذا، قالت أمي بصوت خفيض، سقطت الصابونة من يديك ثلاث مرات هذا الصباح...

– أولا، قال أبي بضيق، الصابونة شيء ينزلق بسهولة شديدة، لأنها عبارة عن كتلة دهنيّة، كما أن المرء لا يحتاط كثيراً عندما يمسك بالصابونة، فهو يعرف أنها لن تنفجر. ثم زيدي على ذلك أنني أغلق عيني عندما أصبّن وجهي، ولا يوجد إنسان سليم العقل يغلق عينيه وهو يقلّب بين يديه الرصاص. فاطمئني من هذه الناحية.

– جوزيف على حق، قال العم. وأنا شبه متأكد أنه لن يترك هذه الذخائر تسقط من يده. لكنه من الوارد أيضا أن تحدث حوادث أخرى. فقد شهدت ذات مرة حادثة شديدة الغرابة.

كنت صغيراً جداً، وكان ذلك في زمن البنادق ذات الذراع، وكان رئيس جمعية الصيد هو السيد بنازيه (نطقها بنازيت)، وكان رجلاً يمكن ملاحظة سمنته حتى من على البعد، فكان يمكن تقدير وزنه بقنطار. وكان لا بد من وصل حزامين من أحزمة الخراطيش معا لكي يكون له منهما حزام على مقاسه... وذات يوم، في أعقاب اجتماع غداء مع الصيادين انزلق على السلالم

فتدحرج من أعلاها إلى أسفلها، بحزام خراطيشه الهائل المربوط حول وسطه، وكان معبأ بالخراطيش ذات البروز... فحدث مهرجان فرقعات شبيه بما يحدث في حلبة ضرب النار... ويؤسفني أن أعلمكم أنه مات في تلك الحادثة...

– جوزيف، قالت أمي شاحبة، لا بد من شراء بندقية أخرى، وإلا فلن تذهب للصيد !

– هدئي من روعك ! قال أبي ضاحكاً. أولاً أنا لا أزن قنطاراً، ثانياً لن أترأس «اجتماع غداء للصيادين» في بلد تنتج نوعاً جيداً من الخمر –بما أنني متأكد أن انفجار السيد بنازيت سبقه أولاً إفراغ دن من النبيذ الأحمر !

– هذا وارد جداً، قال العم جول وهو يضحك. فضلاً عن أنني يمكنني أن أطمئنك يا أوجستين، فهذه الحادثة حتى الآن هي الوحيدة من نوعها التي حدثت. ونهض مرة واحدة، وحمل البندقية عيار ١٢ على كتفه.

وصاحت بي أمي: «اجلس مكانك ! لا تتحرك !»

وأخذ العم لخمس مرات أو ست، يتفحص بالتناوب كلاً من الزناد، وذراع التأمين والسفود. ثم أعلن قراره.

– هذه البندقية قديمة جداً، وتزن ثلاثة أرطال زيادة عن المطلوب، لكنها يمكن التحكم فيها جيداً في اليد وعلى الكتف. وفي رأيي أنها سلاح رائع !

وانفرجت أسارير أبي بابتسامة، ونظر إلى الحضور بنوع من الاعتداد، إلى أن أضاف العم : هذا إذا لم تنفجر .

– ماذا ؟ قالت أمي المروَّعة.

– لا تخشي شيئاً، يا أوجستين، سنقوم بكل ما هو ضروري للتثبت، فسوف نطلق الخرطوشات الأولى بربط البندقية بخيط من على البعد. فإذا انفجرت، سيفقد جوزيف بندقيته فقط، لكن ذراعه اليمنى وعينه لن يصيبهما شيء.

وتفحص مغلاق البندقية من جديد، وقال :

– قد يمكننا أيضاً بتقليل قوة العبوة، أن نغير عيارها، ونجعلها بندقية صيد بط. عموما سنتثبت من كل شيء غداً، أما هذا المساء، فسنجهز رصاصنا.

واتخذ صوته لهجة الآمر !

– قبل كل شيء، أطفئوا كل نار بالمنزل ! فالخطر الذي يمثله هذا المصباح في ذاته خطر كبير ! واستدار ناحيتي ليضيف :

– نحن لا نمزح مع البارود !!

وهرعت أمي، المرعوبة، إلى المطبخ، وسكبت كسرولة ماء على قطع الجمر الأخيرة التي كانت ما تزال تتقد بالموقد. أثناء ذلك، أمّن أبي على مفتاح الضوء بالمصباح النحاس، وعلى إحكام تعليقه.

بعد أن اتُخذَت هذه الاحتياطات، جلس العم في صدر الطاولة، وأجلس أبي أمامه. أما خالتي، التي بدا لها أن هذه الحفلة الخطرة ليس بها سر، فقد صعدت إلى غرفتها، لتلقم الرضّاعة للصغير بيير، ولم تنزل بعد ذلك.

وجلست أمي على مقعد، على بعد مترين من الطاولة، ووقَفْتُ أمامها ما بين ركبتيها، وكنت أفكر بأن جسدي سيحميها بهذا الشكل لو حدث انفجار.

وأمسك عمي بأحد القوارير الحديدية البيضاء، ونزع بحذر الضمادات الملصقة التي تؤمن على السدادة. ولمحْتُ ظهور خيوط دقيقة سوداء تخرج من الفوهة، وأمسك القارورة بخفّة بين أصبعيه الإبهام والسبابة، وجذب السدادة التي كانت تحت الضمادة. ثم أمال عنق القارورة فوق الورقة البيضاء فخرجت حفنة من البارود السوداء. واقتربت منبهراً... كانت هذه البودرة إذن، هي البارود، المادة الرهيبة التي قتلت الأعداد الهائلة من البشر والحيوان، ودمرت الأعداد الهائلة من البيوت، ودفعت بنابليون حتى روسيا... والتي يمكن وصفها

بأنها فحم مسحوق، لا أكثر... وأمسك عمي بكسْتبان خياط كبير من النحاس، مثبت في طرف مقبض من الخشب الأسود.

– هذا هو المكيال الذي نعاير به العبوة، قال لي. وهو مدرّج بالعلامات التي تحدد الجرامات والديسيجرامات، بما يسمح لنا بالدقة الكافية.

وملأه لحافته، وأفرغه على كفة الميزان الحساس. وهبطت الكفّة، ثم علت ببطء، وتوازنت.

– إنه ليس رطباً، قال، فهو يزن وزنه المضبوط، وله بريقه. إنه ممتاز. وشرع في ملء الأظرف. وهي العملية التي تعاون معه فيها أبي، فقد كان يغرز فوق البودرة، الحشوات الدهنية التي طبخها العم جول. ثم جاء دور الرصاصات، ثم دور حشوات أخرى، هذه الأخيرة كانت على اسطوانة كرتونية عليها أرقام كبيرة سوداء تحدد حجم الرصاصة.

بعد ذلك جاء دور التّرصيص، فكانوا يطوقون بالمنجلة الجزء الأعلى من الخرطوشة، بنوع من الحشوة المطاطية، التي تحكم نهائياً إغلاق هذه التوليفة القاتلة.

– عيار ١٦ ، سألت أنا، أهو أكبر من عيار ١٢ ؟

– لا، قال العم، إنه أصغر قليلاً.

– لماذا ؟

– حقاً ! قال أبي، لماذا كانت الأرقام الأصغر، هي العبوات الأكبر ؟

– هذا ليس سراً كبيراً. قال العم جول بأستاذية، و لكن حسناً فعلتم بطرحكم السؤال، فعيار ١٦ ، هي بندقية نصنع لها ستة عشر رصاصة برطل من الرصاص. أما عيار ١٢ ، فنفس رطل الرصاص لا يموّن لها سوى إثنتي عشر

رصاصة، ولو كان هناك عيار واحد، فمعنى ذلك أنه سيكون بندقية تطلق الرصاصات التي وزنها رطل.

– هذا شرح شديد الوضوح، قال أبي، فهل فهمت ؟

– نعم، قلت، فكلما صنعنا رصاصات أكثر من رطل الرصاص. كانت هذه الرصاصات أصغر. وهو ما يجعل ماسورة البندقية أضيق، عندما يكون العيار أكبر.

– ألنت تتحدث عن الرطل الجديد الذي يزن ٥٠٠ جرام ؟

– لا أعتقد، قال العم. أتصور أن الأمر يتعلق بالرطل القديم، الذي هو ٤٨٠ جراما.

– هذه معجزة ! قال أبي فجأة باهتمام.

– لماذا ؟

– لأنني أجد في ذلك منجماً من مسائل الحساب للصف المتوسط : «صيّادٌ لديه سبعمائة وستون جراماً من الرصاص، وتمكن من صهر أربع وعشرين رصاصة لبندقيته. مع اعتبار أن وزن الرطل القديم هو أربعمائة وثمانون جراماً، وأن الرقم الذي يمثله العيار يمثل عدد الرصاصات التي يمكن عملها لبندقية برطل من الرصاص؟ فكم عيار بندقيته ؟».

وأقلقني هذا الابتكار التربوي قليلاً، خشية أن يتم تجربته على حساب ألعابي. ولكنني اطمأننت حين فكرت أن أبي بدا مولعاً جداً بهوايته الجديدة بما لن يجعله يضحي بالإجازة بإتلاف هواياتي، وأكدت لي الأيام بعد ذلك سلامة تقديري.

وجذبت السهرة التي انتهت بصف فوج من الخراطيش متعددة الألوان، رصت كأنها جند من الرصاص، كل شغفي واهتمامي. رغم هذا داخلني

إحساس بالضيق، ونوع من عدم الارتياح لم أتمكن من تحديد سببه . ولم أعرف هذا السبب إلا عندما بدأت خلع جواربي.

كان العم جول يتحدث طيلة السهرة كالعارف وكالأستاذ، بينما كان أبي، الذي هو عضو لجنة الامتحان في الشهادة الدراسية، يستمع بانتباه، وفي وضع الجاهل، كأنه تلميذ. كنت أشعر بالخزي والإهانة.

وفي صباح اليوم التالي، وأثناء ما كانت أمي تصب القهوة في حليبي، بحت لها بجانب من مشاعري.

– هل يسرك أنت، أن يذهب بابا للصيد ؟

– ليس كثيراً، قالت لي. فهي تسلية خطرة .

– هل تخشين أن يسقط من على الدرج بخراطيشه ؟

– لا لا ... قالت، فهو ليس أخرق لهذا الحد... لكن على كل حال، هذا البارود خائن.

– أما أنا، فليس هذا هو السبب في أن الأمر لا يعجبني.

– وما السبب إذن ؟

وترددت لحظة، تبلّعتُ فيها بجرعة كبيرة من القهوة بالحليب.

– ألم تري كيف أن العم جول فخور بنفسه ؟ فهو الذي يوجه كل شيء، والذي يتحدث طيلة الوقت.

– إنه يفعل ذلك ليعلّم أباك. وهو يفعل هذا بود وصداقة.

– أما أنا فألاحظ أنه مبسوط جداً لكونه أقوى من أبي. وهذا لا يسرني إطلاقا. فأبي يهزمه دائماً، في لعب الكرات، أو في الضّامة. أما في لعبة الصيد هذه، فأنا متأكد أن أبي سيخسر، وأجد من الحمق أن نلعب لعبة لا نعرفها. فأنا

لا ألعب بالبلي، أو بالأعواد، أو ألعب الحجلة، لأنني أكسب دائماً فيها تقريباً.

– ولكن، أيها الجحش الكبير، ليس الصيد مسابقة ! إنه نزهة ببندقية، وبما أن هذا يسليه فسوف يحسّن كثيراً من صحته، حتى لو لم يقتنص أيّة طريدة.

– لو لم يصطد شيئا، هذا أمر سيقرززني. نعم سيقرززني، ولن أحبه أبداً. وكانت لديّ رغبة في البكاء، بما جعل الشطيرة تتوقف في حلقي. ولاحظت أمي هذا، فاقتربت مني وقبّلتني.

– لديك بعض الحق، قالت، بالطبع سيكون بابا في البداية أضعف من العم جول، لكن خلال أسبوع، سيكون ماهراً مثله تماماً. وسوف ترى أنه هو الذي سيعطي النصائح خلال خمسة عشر يوما !

ولم تكن تكذب لكي تطمئنني، فقد كانت واثقة من جوزيفها. لكن القلق كان يفترسني أنا، كما قد يحدث لأطفال رئيس جمهوريتنا الموقر، لو أنه باح لهم بعزمه على الاشتراك في بطولة فرنسا لسباق الدراجات.

‹› ‹› ‹›

كان نهار اليوم التالي مضنياً أكثر. فطوال عملية تنظيف البنادق، التي كانت قطعها منشورة على الطاولة ، ظل العم جول يسرد ملاحمه الصيديّة. قال إنه في إقليم : روسيّون مسقط رأسه، قد صرع، بين الكروم والصنوبر، عشرات الأرانب البرية، ومئات الحجل، وآلاف الأرانب العادية، بخلاف الطرائد النادرة.

– ذات مساء، كنت عائداً أدمدم، من الحنق، فقد أخطأت يومها أرنبين بريين واحداً بعد الآخر.

– لماذا؟ قال بول فاغراً فاه محملقاً عينيه.

– عجباً، لا أدري لماذا !... القصد، كنت أشعر بالخزي والإحباط... ولكن عند خروجي من غيضة «تابس» وانعطافي في كرمة بروكيرول ماذا رأيت ؟...

– أجل. ماذا رأيت ؟ قال بول بتوجس.

وصحت أنا : «حجل بريّ !»

– لا، قال عمي، لم يكن ما رأيته من النوع الذي يطير، وكان ضخماً جداً. فماذا كان ؟ لقد كان غرّيراً !... نعم كان غرّيرا ضخم الحجم، وقد خرّب لتوه خطاً من أعناب الأكل ! فوضعت بندقيتي على كتفي، وضربت...

كانت الحكايات تدور دائما حول نفس الشيء، ومع ذلك كانت جديدة دوماً. يصوب العم ويضرب. ثم للحيطة، يضرب ثانية. وينضم الحيوان الصريع إلى قائمة الضحايا اللامتناهية.

كان أبي يستمع إلى هذه السرديات المجيدة، بغير أن يقول شيئاً، وهو ينظف، بهدوء وكتلميذ مبتدئ، ماسورة بندقيته، بفرشاة مستديرة مثبتة بطرف عصا طويلة، بينما رحت أنا أجلو الزناد وحلقته باكتئاب. وعند الظهر، كانت الأسلحة قد تم تركيبها، وتزييتها، وتلميعها، وأعلن العم !

– سنجربها بعد الظهر.

٥ ٥ ٥

واستمر مسلسل مفاخره طوال تناول الطعام، وانعطف بنا حتى جبال

البيرينيه، ليقص سردية عن صيده لغزلان الشامواه.

– نظرت بنظارتي المكبرة، فماذا رأيت ؟

ونسي بول طعامه وهو يتابعه، كذلك أمي وخالتي –اللتان– بعد موت اثنين من غزال الشامواه، ترجّتا الراوية أن يتوقف عن سرد مفاخره، وهو الأمر الذي بدا لي مداهنة كبيرة. وتحيّنت فرصة توقفه لكي أصوغ بمهارة سؤالا شخصيا.

فمنذ بداية الاستعدادات، لم يكن لديّ شك في أنني سأكون محل طلب من الصيادين لأصحبهم وأساعدهم. لكن كلا من أبي أو عمي لم يقل هذا بوضوح، ولم أكن قد سعيت إطلاقاً لطرح السؤال، خشية رفض تلقائي. لذا فقد راوغت حول الموضوع بسؤال آخر.

– والكلب ؟ قلت . ألن يلزمكم كلب ؟

– سيكون أمراً حسناً لو أن لدينا كلباً، قال العم. ولكن من الصعب الحصول على كلب مدرّب.

– أليست تباع لدى التجار ؟

– نعم، قال أبي. لكن هذا سيكلفنا خمسين فرنكاً على الأقل !

– هذا هو الجنون بعينه ! صاحت أمي .

– أوه. ليس الأمر كذلك ! قال العم. فلو أن كلباً من سلالة جيدة يكلف خمسين فرنكاً فقط، صدقوني لن أتردد في شرائه، لكنك بهذا السعر، لن تتمكن سوى من شراء كلب هجين، يضللك فبدلا من تعقب أثر أرنب بري يتعقب أثر فأر !... فالكلب المدرّب، يتراوح سعره بين الثمانين والخمسمائة فرنك.

– ثم ماذا سنفعل به، قالت خالتي، بعد انتهاء موسم الصيد.

– بعد انتهاء موسم الصيد، سنضطر لبيعه بنصف ثمنه ! فضلاً عن أنه من

الخطر جداً تربية كلب في بيت به طفل رضيع، أضاف العم.

– صحيح، قال بول، فقد يأكل ابن العم الصغير !

– لا أعتقد، ولكنه قد يُعْدِيه، بغير قصد، بالأمراض.

– التهاب الزور، صاح بول، لقد أصابني، لكن ليس بسبب كلب، بل بسبب تيار الهواء.

ولم ألح، فلم يكن وارداً لديهم أن يأتوا بكلب. لذا، فهم لا شك أعدوا عدتهم للاعتماد عليّ في جمع الطرائد المقنوصة. ولم يقولوا ذلك، لكنه كان بالطبع أمراً متوقعاً، فلم يكن من الضروري لي الحصول على وعد مؤكد، خصوصا في حضور بول، الذي كان قد عبر عن عزمه متابعة الصيد من على بعد وهو يضع القطن في أذنيه، وهو العزم الذي لم يكن له سند والذي كان بإمكانه أن يفشل خططي.

لذا فقد صمتت بشكل فطن.

كان موعد افتتاح موسم الصيد يقترب، ولم يعد أحد بالمنزل يتحدث إلا عن الصيد. وعلى الرغم من السرديات الملحمية الطويلة والمتتابعة، لم يكن العم جول قد بدأ بعد شروحه وبراهينه التقنية، وذات يوم في الساعة الرابعة عقب راحة القيلولة، قال :

– يا جوزيف، سأشرح لك تفصيلاً «ضربة الملك»، التي هي أيضاً ملكة كل الضربات. أولا، أصغ إليّ جيداً... ستكون أنت مختبئاً خلف ساتر، ويكون كلبك قد قام بعمل دورة كاملة حول الكرمة، هذا إذا كان كلباً مدرباً، لذا ستأتي طيور الحجل نحوك مباشرة. عندئذ ستتراجع أنت خطوة للوراء، لكنك لن ترفع بندقيتك إلى كتفيك في هذه اللحظة، لأن الطريدة قد تلمح بندقيتك، ويكون لديها الوقت لتتسلل. ستنتظر إلى أن تظهر الطيور في مجال البصر. وما

إن تظهر في مجال البصر، حتى ترفع البندقية على الكتف، وتصوب. لكن لحظة التصويب، وبضربة خاطفة، سترفع طرف الماسورة بمقدار عشرة سنتيمترات، وأنت تضغط على الزناد، وتحني رأسك، مقوساً ظهرك.

– لماذا ؟ قال أبي.

– لأنه إذا كان تصويبك مضبوطاً، ستصيب مباشرة طائراً وزنه كيلوجراماً منطلقاً بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة، لنتحدث الآن بشكل عملي: مارسيل، اذهب وأحضر لي البندقية.

وهرولت إلى قاعة الطعام، وعدت بخطوات بطيئة، حاملاً هذا السلاح الثمين باحترام. وكان العم دائماً يفتح الترباس قبل كل شيء، ليتأكد ما إذا كانت البندقية معبأة أم لا.

واتخذ العم مكاناً خلف ساتر الحديقة، وصنعنا أنا وبول مع أبي نصف دائرة حوله. وحاول العم، الذي أغمض عينيه نصف إغماضة، وأرهف أذنيه، وأحنى ظهره، أن يتخيل فيما وراء أوراق الشجر، كروم إقليم روسيوُن الذهبية، لا الطريق البائس الموجود. وفجأة نبح نبحتين حادتين قصيرتين. ثم صفر صفيراً حاداً بشفتيه المزمومتين، وقلد الطيران اللاهث لسرب من طير الحجل. ثم خطا للخلف ونظر باهتمام إلى السماء من طرف الساتر، وحمل بندقيته بسرعة على كتفيه، وصوب ضارباً الضربة الخاطفة، صائحاً : «طاخ ! طاخ» مما جعلنا نكمش نحن الأربعة رؤوسنا بين أكتافنا المتقلصة، وقد شلت حركتنا، وأغمضت عيوننا، توقّعاً لتلقي صدمة سقوط طائر زنة كيلوجرام منطلق بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة.

وخلصنا العم من هذا الموقف بأن قال: «بوم بوم» مشيراً خلفنا، كأن طيرين من طيور الحجل كانا يسقطان معاً. وتابعهما بعينيه لحظة. ثم ذهب والتقطهما الواحد بعد الآخر ـــ بما أنه في براهينه. لم يكن إلا ليصطاد «هدفين» بضربة

واحدة. ثم عاد ليجلس أخيراً، وهو يصفر لكلبه، في الظل، بخطوات ثقيلة لصياد متعب. فقال أبي المهموم:

- هذا لن يكون أمراً سهلاً.

- بالطبع! ويلزمه التدريب! وأقول لك إنني لم أسمع أبداً بأن مبتدئا نجح في ذلك من أول مرة... لكنك لو أن لديك استعداداً حقيقياً ـــ وهذا ما أجهله للآن - سيكون ذلك سهلاً عليك في العام المقبل... وحاول أن تتدرب عليه الآن فوراً!

وأخذ أبي الوديع، بندقيته بدوره، وأعاد بإخلاص تمثيل تمثيلية العم جول.

وفي بعض الأحيان، في الصباح، كان يصطحبني معه على طريق وادي «الرابون» الذي كان يَحُفُّه ساتر من الأشجار الكبيرة. وكنا نعيد هناك في الخفاء تمثيل «ضربة الملك»، فكنت ألعب دور الحجل، ثم في لحظة الطيران. أقذف بكل قواي حجراً من خلف الساتر، ويحاول أبي متابعته بطرف بندقيته التي يشدها بقوة إلى كتفه.

في أعقاب ذلك ـــ ولصيد الأرانب ـــ كنت أقذف بين الأعشاب، وبغير أن أنبهه، كرة قديمة متعطنة، هي فضلة من لعبة بولينج كانت منصوبة فيما مضى، وجدتها في الحديقة.

وفي أحيان أخرى، كان يرسلني لأختبئ في أجمة، ويأمرني بإغلاق عيني وكنت وأنا في هذا الوضع أرهف أذني، وأتنصت على أقل خشخشة. وفجأة، أجده يضع يده على كتفي، قائلاً: «هل شعرت بي وأنا أتحرك صوبك؟».

بهذا الشكل استعد أبي «لافتتاح الصيد»، بمثابرة متأنية جداً، ومهذبة للغاية، جعلتني، للمرة الأولى في حياتي، أشك في جبروته، وازداد قلقي مع الوقت.

عقب الغداء، ذهب الكبار للقيلولة. وتحيّنّا نحن فرصة هذه الفترة لكي نضع الدفة للصراصير؛ أي أننا كنا نثبت أوراق اللوز في مؤخرات هذه المنشدات البائسات، فكانت تخرس عن الصرير، وكنت أطلقها بعد ذلك في الهواء، فتطير متخبطة، وكانت تحويماتها الهاذية تضحكنا من قلوبنا.

حوالي الساعة الثالثة، نادانا أبي.

– تعالوا هنا! صاح، كونوا خلفنا بعيداً! فسوف نجرب البنادق!

كان العم جول قد أحكم ربط البندقية في فرعين متوازيين، ومد منها خيطاً طويلاً ربط طرفه بالزناد. وتوقف هو على بعد عشر خطوات منها.

وهرعت أمي وخالتي، لتدفعانا لنتراجع للوراء أكثر.

– إنتبهوا! قال العم. لقد وضعت شحنة مضاعفة، وسأضرب الطلقتين مرة واحدة! فإذا انفجرت البندقية، قد يصفر الشظي في آذاننا!

وتراجعت العائلة كلها إلى ماوراء جذع شجرة الزيتون. وأغمض كل منا عينا. وظل الرجال فقط، مكشوفين على نحو بطولي.

وشد العم الخيط، فمزق صوت الانفجار القوي الهواء. وهرع أبي نحو السلاح المربوط.

– لقد تحمل التجربة! صاح. وقطع الخيط بجذل.

وفتح العم ترباس البندقية، وتفحصها عن قرب شديد.

– ممتاز! قال أخيراً. ليس بها صدع ولا تمدد. يا أوجستين، لك أن تطمئني الآن على سلامة جوزيف، فهذه البندقية قوية كالمدفع.

ونظراً لأن النساء اللاتي طمأنهن، كن بعيدات، قال لأبي بصوت خفيف:

– كان بمقدوري طبعاً أن أؤكد لك قبل هذه التجربة أنها بندقية ممتازة،

فلا تجب المبالغة، لأنه يحدث بعض الأحيان أن تعرض التجربة بهذا الشكل متانة الماسورة للخطر. لكنها مغامرة لابد من القبول بها. هيا بنا الآن نختبر مجموع الرصاصات.

وأخرج من جيبه جريدة، فردها، ومضى بخطوات سريعة نحو كوخ المرحاض الصغير القابع في نهاية مشتل الزهور،

– أعنده مغص؟ قال بول.

لكن العم بول لم يدخل الكوخ، بل ثبت على بابه الجريدة المفرودة، بأربعة دبابيس، وعاد بخطوات سريعة ناحية أبي.

وعمر بندقيته بخرطوشة واحدة. وصاح «خذوا حذركم!» ووضع البندقية على كتفه، وصوب، ثم أطلق. وهرب بول الذي كان يضع سداداتٍ في أذنيه، إلى داخل البيت.

واقترب الصيادان من الجريدة، التي أحالتها الثقوب إلى مايشبه المصفاة. وتفحصها العم جول بإمعان. ثم بدا عليه الرضا.

– إنها مُركَّزة تماماً، برغم إطلاقها من الماسورة الضيقة، من بعد ثلاثين متراً، ممتاز. وأخرج من جيبه جريدة أخرى، قال وهو يفردها:

– دورك يا جوزيف!

وبينما كان يثبت الهدف الجديد في مكانه ، عمَّر أبي بندقيته. وعادت أمي وخالتي،اللتان كانتا قد أخذتا بفعل الانفجار الأول،إلى الشرفة . ووضع بول ، المختبئ نصف اختباء ، وراء التينة سبابتيه في أذنيه. وانعطف العم بخطوة سريعة وقال:

– هيا!

وصوب أبي.

كنت خائفاً ألا يصيب الباب، لأن ذلك كان معناه الإهانة الحاسمة، التي لابد معها، في رأيي، أن يتراجع عن فكرة الصيد.

وأطلق. كان الانفجار مرعباً، واهتز كتفه بعنف. لكنه لم يبد عليه التأثر ولا المفاجأة. فقد اتجه نحو الهدف بخطوات هادئة ـ وكنت أسبقه.

أصابت الطلقة مركز الباب، فقد أحاط الخردق بالجريدة من الجهات الأربعة، وشعرت بزهو المنتصر، وانتظرت من العم جول أن يعبر عن إعجابه.

وتقدم العم، وتفحص الهدف، واستدار قائلاً ببساطة:

– هذه ليست بندقية إنها مدفع رشاش!

– لقد أصاب الهدف في مركزه! قلت بصوت قوي.

– كان تصويباً لابأس به! قال بعجرفة. لكن الحجل الذي يطير شيء آخر يختلف عن باب المرحاض الثابت. هيا، سنجرب الآن رصاص عيار أربعة، وخمسة، وسبعة.

وأطلق كل منهما ثلاث دفعات من بندقيته، تبعتها في كل مرة تعليقات وفحوص العم. ثم صاح، أخيراً:

– أما الطلقتان الأخيرتان. فستكونان من الخُردق الغليظ، أحكم إمساك بندقيتك، ياجوزيف، فقد وضعت عبوة ونصفاً من البارود في كل طلقة. وأنتن سيداتي. اسْدُدْنَ آذانكن، لأنكن ستسمعن الرعد!

وأطلق الاثنان معاً في نفس الوقت. كان صوت الفرقعة مذهلاً، وارتج الباب بعنف شديد. وتقدم الإثنان نحو الهدف، مبتسمين، راضيين عن نفسيهما.

– عماه، سألته. هل يمكن لطلقة كهذه أن تقتل خنزيراً برياً؟

- بالتأكيد، صاح، شرط أن تصيبه...

- في جانب كتفه الأيسر!

- بالضبط!

وخلع الجرائد المعلقة. فرأيت في خشب الباب، علامات عميقة محفورة لعشرين رصاصة خردق صغيرة.

هذا خشب قوي، قال. لم يخترقه الخردق، ليتنا استخدمنا الرصاص.

لحسن الحظ لم يستخدموه، لأننا سمعنا من وراء الباب الممزق صوتاً واهناً. كان يقول برجفة:

- هل يمكنني الخروج الآن؟

كان صوت الخادمة.

٥ ٥ ٥

وطلع الفجر أخيراً على عشية اليوم الكبير.

قام الاثنان أولاً بقياس زي الصيد. وكان أبي قد اشترى كاسكيتة زرقاء، بدت لي أجمل ما في الزي، وجِتْرين من الجلد الكستنائي اللون، وخفين برقاب ونعلين من الحبال. وارتدى العم جول بيريها، وحذاءين طويلين برباط من الأمام، وسترة شديدة الخصوصية، لابد من الحديث عنها، لأنها كانت سترة رائعة جداً. فعندما رأيناه بها للمرة الأولى، قالت أمي:

- هذه ليست سترة، إنها ثلاثون جيبا خِيطت في بعضها!

كانت بها جيوب حتى على الظهر، وقد تلاحظ لي فيما بعد أن هذا الغنى له عيوبه. فعندما كان العم يبحث عن شيء في جيوبه، كان يتحسس الجوخ أولا، ثم البطانة، ثم الاثنين معا، لكي يستدل على مكان الشيء. وكان أصعب مافي الأمر بعد ذلك، هو معرفة أي سبيل يمكن التوجه منه نحو الإمساك بالشيء.

بهذا الشكل، فإن شحروراً صغيراً يتم نسيانه في هذه المتاهة. كان يعلن عن حضوره، بعد خمسة عشر يوماً، برائحة كريهة. وكان يسهل تحديد مكانه بواسطة أنف الخالة روز، وبواسطة بروز المنقار التعس الأصفر الذي يطل من البطانة. وكان العم يجس بضع فتحات للجيوب. فيكتشف أذن أرنب، أو حلزون سلق من الحر، أوسلاًكة أسنان تنزرع في أظفر أصبعه السبابة. وكان الأمر يتطلب كل مرة فتح البطانة بالمقص لإخراج الجثة.

مع ذلك، فيوم قياس الملابس، كان لسترة العم نجاح كبير، فقد تمثل فيها وَعْدٌ بكَمٍّ من الطرائد. واستمرت الحفلة أمام المرآة وقتاً طويلاً، وبدا على الصيادين الرضا. لكن زوجتاهما جعلتاهما يخلعان السترات عندما راحا يصوّبان بالبنادق أمام المرآة، وتعهدتاها بإعادة حياكة أزرارها لإحكامها.

مرة أخرى تم تزييت وتشحيم البنادق، وكان لي حظ تعبئة الخراطيش في أحزمة الجلد ذات الثنيات. من ثم راحا يدرسان الخريطة بطريقة أركان الحرب. وبيدهم عدسة مكبرة.

— سنصعد من خلف المنزل، قال العم، حتى «ريد ونيو»، التي هي هنا (وثبّت في الخريطة دبوساً برأس سوداء)؛ وحتى هنا، لن نجد تقريباً شيئاً ذا أهمية. وقد نجد فقط عصافير السُّمنة أو الشحارير...

— سيكون هذا مهما جداً، قال أبي .

– هذه ترّهات! قال العم. إن طريدتنا ـــ ولا يجب أن يحرفنا عن ذلك وهم – ليست كذلك الحجل، وإنما على الأقل الحجل الرومي الملكي، والأرنب، والأرنب البري. وأعتقد أننا سنجدها في منطقة «اسكاوبر»، هذا على الأقل ما قاله لي موند دي بابيون. إذن فمن «رودينيو»، سننزل إلى «اسكاوبر»، ونصعد حتى سفح قمة «التاومي»، التي سنلتف حولها يميناً حتى «بئر التوتة». وهناك سنتناول غداءنا، أي في حوالي الثانية عشر والنصف. بعد ذلك...

ولكني لم أستمع لما بعد ذلك، فقد كنت أفكر في خطتي.

كان من الضروري أن أخرج الآن السؤال بوضوح، وأن أحصل على تأكيد بما أيقنت به، وهو اليقين الذي تزعزع بسبب السلوك غير الإيجابي للمحيطين. فلم يتحدثوا عن بذلتي... أيكونون قد فكروا هكذا أن ملابسي كافية لكلب صيد؟

ذات صباح، كنت قلت للخادمة إنني أنتظر بفارغ الصبر افتتاح الصيد. وضحكت هذه المخلوقة وهي تجيبني:

– لا تتخيل أنهم سيصحبونك معهم!

وكان جوابها يعكس سوء طويّة سخيف لبلهاء، فأسفت لأنني توجهت إليها بالحديث. وكان مما ضاعف قلقي، أنه بدا لي أن أبي يشعر ببعض القلق بهذا الصدد وأنه عدة مرات على طاولة الطعام ـــ وبدون أي سبب ـــ قال إن النوم أمر ضروري للأطفال، كل الأطفال بلا استثناء، وإنه من الخطر إيقاظهم في الرابعة صباحاً. وقد أفاض العم في هذا المعنى، حتى أنه أورد في حديثه أمثلة عن الغلمان الصغار الذين أصيبوا بالكساح أو بالسل لأنهم كانوا يوقظونهم مبكرين كل صباح.

وكنت أعتقد أن هذه الخطابات موجهة إلى بول، بهدف إعداده لتنحيته

عن الذهاب للصيد. ولكن بقي في نفسي انطباع قوي غير مريح، آت من بعض الشك المقلق، واستجمعت شجاعتي. كان لابد من إبعاد بول أولا.

وكان هو في هذه اللحظة أمام الباب، مشغولاً بخربشة بطن صرصور، كان يَصِرُّ من اللذة، أو ربما يصرخ من الألم.

وأعطيته شبكة صيد الفراشات، وأوحيت له أنني رأيت لتوي، في نهاية الحديقة، عصفوراً جريحاً، وأن من السهل عليه صيده. وأثاره هذا كثيراً، فترك الصرصور، وقال: «هيا.. بسرعة!» فأجبته بأن من الصعب عليَّ أن أصحبه، لأنهم فرضوا عليَّ أن أستحم، بالصابون.

وكنت أفكر في أن أستثير عاطفته، وأن أوقظ في نفس الوقت فيه نفس الخشية من أنهم قد يعاقبونه هو الآخر بحمام صابون. وقد نجحت في هذا تماما، لأنه، منجذباً إلى العصفور، ومرتعباً من الحمام، انتزع الشبكة من يدي، واختفى في أكمة الزهور.

وعدت إلى المنزل في اللحظة التي كان العم جول فيها قد طوى الخريطة وهو يقول:

– اثنا عشر كيلو متراً في التلال، ليست بالشيء الكثير، لكنها في نفس الوقت مسافة. فقلت بشجاعة!

– أنا، سأحمل الطعام.

– أيُّ طعام؟ قال العم.

– طعامنا، سآخذ كيسين، وأحمل فيهما الطعام.

– ولأين ستحمله إذن؟ قال أبي.

وقطع هذا السؤال أنفاسي، لأنني لاحظت أنه يدَّعي عدم الفهم.

وتابعت كلامي يائساً وتحدثت دفعة واحدة بغير أن ألتقط تنفسي.

– في الصيد، أعني. أنا ليست معي بندقية. فمن الطبيعي أن أحمل طعام الغداء، لأن هذا قد يضايقكما حمله. ثم إنكم لو وضعتم الطعام داخل قراب الصيد، فلن يكون به مكان لوضع الطرائد. كما أنني، في مشيتي، لا أحدث أية ضجة. فقد درست الهنود الحمر جيداً، وأعرف كيف أتسحب كالكومانش، والدليل على ذلك، أنني أباغت الصراصير وأتصيدها وقتما أشاء. كما أنني أرى على بعد، ومنذ عدة أيام، أنا الذي أشرت لك على الصقر، الذي لم تره أنت مباشرة. كذلك فأنتم ليس لديكم كلب، والدرّاج حين تتصيدونه لن تستطيعوا العثور عليه، ولكوني أنا صغيراً، سيمكنني التسلل في الأدغال... وبهذه الطريقة، في الوقت الذي أفتش فيه أنا عن الطريدة المقتنصة، يمكنكم اقتناص غيرها.. ثم...

– تعال هنا، قال أبي ووضع يده الكبيرة على كتفي، ونظر في عيني.

– هل سمعت ما قاله العم جول. اثنا عشر كيلو متراً في التلال! وأنت قدماك صغيرتان لا تستطيعان حملك لمسافة طويلة كهذه!

– إنهما صغيرتان، لكنهما قويتان، قلت. المسهما، إنهما في صلابة الخشب!

وتلَمَّسَ سمَّانَتَيْ قدمي: صحيح أنك لديك عضلات قوية...

– ثم إنني خفيف، ليست لديَّ أفخاذ سمينة كالعم جول، وهذا سيجعلني لا أتعب أبداً!

– هو هوه! قال العم جول، الذي سعد جداً بتغيير الحديث، أنا لا أحب كثيراً أن يسمح أحد لنفسه بنقد أفخاذي!

ولكني لم أقبل تحويل مجرى الحديث، وتابعت القول:

– إن الجرادات ليست سمينة، ومع ذلك تقفز أبعد مما تقفز أنت! ثم إن العم جول عندما كان عمره سبع سنوات، كان أبوه يصطحبه دائما للصيد. وأنا تخطيت الآن ثمانية أعوام ونصف، ومع ذلك، كان هو يرى أن أباه قاسٍ. إذن، فهذا ظلم... كما لو أنكم لو كنتم غير راغبين في اصطحابي، فسوف أمرض، وقد أصابني بالفعل الآن ألم في القلب!

وأعقبت ذلك، بأن هرعت إلى الحائط، وعقدت ذراعي واضعاً رأسي بينهما ورحت أبكي بصوت عال. وحار أبي ماذا يقول وربت على شعري.

ودخلت أمي، وبغير أن تُعلِّق، ضمتني إلى صدرها، وكنت في قمة يأسي. لأن يوم افتتاح الصيد بدا لي كما لو أنه بداية المغامرة الكبرى في الأحراش العليا المجهولة التي ظللت أتطلع إليها لزمن طويل. والأهم من ذلك، أنني كنت أرغب في مساعدة أبي في امتحانه هذا، وكنت أتصور أنني سأتسلل في الأدغال، وأدفع بالطرائد في اتجاهه، فإذا أخطأ دُرّاجاً، أقول أنا: «لقد رأيته يسقط!»، وأعود حاملاً في يدي بهيئة المنتصر بعض الريش الذي لَمْلَمْتُه من قن الدجاج، حتى أبعث الثقة في نفسه. لكن هذا أمر لا أستطيع مصارحته به، وهذا الحب المقهور يكسر قلبي.

– لكنكم أيضاً، قالت أمي بنغمة عتاب، قد حدثتموه كثيراً!

– هذا الأمر سيكون خطيراً، قال أبي خاصة يوم الافتتاح. فسيكون هناك صيادون آخرون بالتلال... وهو صغير، وقد يختلط الأمر في الأدغال على أحد، فيتصوره طريدة.

– لكنني أنا، سأراهم هؤلاء الصيادين وأحذرهم! صحت بين زفرتين. فإذا حادثتهم بنفسي وصحت عليهم سيفهمون أنني لست أرنبا!

– حسنا، أعدك أن تأتي معنا بعد يومين أو ثلاثة، عندما أكون قد تدربت

جيداً، وعندما لا نتوغل في التلال بعيداً بهذا الشكل.

– لا لا! أنا أريد حضور الافتتاح!

عندئذ، بدا العم جول كريماً وعظيماً.

– سأدس أنفي، ربما فيما لا دخل لي به، قال. لكن من رأيي أن مارسيل يستحق أن يحضر معنا الافتتاح. ليكف عن البكاء إذن. فسوف يحمل طعام غدائنا، كما اقترح، ويتبعنا في هدوء، على بعد عشر خطوات خلفنا.

واستدار ناحية أبي :

– هل توافق، يا جوزيف؟

– إذا كنت موافقاً، فأنا موافق.

واختنقت بالعرفان، وأنا أذرف مزيداً من الدموع. وربتت أمي بحنان على رأسي، وقبلت وجنتيّ المبتلتين. فوثبت نحو عمي، وتسلقته وضممت رأسه الكبيرة إلى صدري الذي يخفق.

– هدئ من روعك، هدئ من روعك! قال أبي .

وبعد قبلتين مطرقعتين، نزلت من على كتف عمي في وثبة، وقبلت يد إبى، رافعا يديّ لأعلى، قمت برقصة بربرية ختمتها بقفزة وضعتني فوق الطاولة، فأرسلت من عليها ألف قبلة للحاضرين.

– فقط، قلت معقّباً، لا يجب أن نقول لبول، لأنه صغير جداً، وليس بوسعه المشي مسافة بعيدة كهذه.

– هي هيه، ستكذب على أخيك إذن؟

– لن أكذب. ولكني لن أقول له شيئاً.

– ولكن لوسألك؟ قالت أمي .

– سأكذب عليه، لأن هذا من أجل صالحه.

– هو على حق! قال عمي .

ثم نظر لي جيداً في عيني، وأضاف:

– أنت قلت الآن قولاً هاماً، حاول ألا تنساه: من الممكن الكذب على الأطفال، إذا كان ذلك في مصلحتهم. وأعاد التأكيد: «لا تنس هذا»

وكان بول قد رجع، مذهولاً لأنه لم يجد العصفور الجريح، وانتهت المحادثة فجأة.

<> <> <>

خلال العشاء، كانت فرحتي كبيرة لدرجة أنني لم أستطع الأكل، برغم متابعة أمي لي بالمراعاة. ولكن بفضل أحاديث العم جول المستمرة عن شهية الصيادين التي كانت كأنها خصلة مميزة لهم كعنصر، التهمت قطعة اللحم، وطلبت مزيداً من البطاطس.

– ماذا دهاك؟ قال أبي .

– أنا أتغدى جيداً استعداداً للغد!

– وما الذي تستعد لعمله في الغد؟ سأل العم بنغمة استفهام ودودة.

– حسنا، قلت، غداً هو الافتتاح.

– الافتتاح؟ لكن الافتتاح ليس غداً! وتعجب... غداً، هو الأحد! فهل تتصور أنه مسموح بقتل مخلوقات الرب، في يوم الرب؟ فكيف تذهب للصلاة إذن؟ صحيح، أضاف، إنكم عائلة فاقدة الإيمان! وهذا هو السبب في أن هذا الطفل لديه فكرة مجنونة عن إمكان افتتاح الصيد في يوم أحد!

وأصابني الوجوم.

– ولكن، متى سيكون الافتتاح إذن؟

– يوم الاثنين... بعد غد.

كان خبراً مؤسفاً، لأن يوم الانتظار هذا سيكون يوماً طويلاً لا يتحرك كالقتيل. فما العمل؟ واستسلمت، كارهاً، بغير أن أنطق كلمة. ثم ذهب الجميع للنوم، لأن العم جول كان قد بدأ ينعس.

وأثناء ما كانت أمي تغطي بول الصغير، جاءت إليّ وقبلتني، وقالت لي:

– غدا سأنتهي لكما من حياكة أزياء الهنود الحمر الجديدة، وستصنع أنت السهام. وسيكون لنا على الغداء فطيرة مشمش مع الكريمة المضروبة.

وفهمت أنها وعدتني بهذه المأدبة لكي تخفف من خيبة أملي. فَقَبَّلْتُ يدها بحنو. لكنها، ما إن خرجت من الغرفة، حتى تحدث الصغير بول. ولم أكن أراه لأنها كانت قد أطفأت الشمعة بنفخة من فمها وهي خارجة. وكان صوت الصغير هادئاً وبارداً:

<> <> <>

– أنا، كنت أعرف أنهم لن يصحبوك للافتتاح. كنت متأكداً!

فأجبته بنفاق:

– أنا لم أطلب الذهاب أبداً. فالافتتاح ليس من أجل الأطفال.

– أنت كذاب كبير. لقد فهمت فوراً أن حكاية العصفور الجريح لم تكن إلا كذبة. لذا عدت في التو. ووقفت تحت النافذة، وسمعت كل ما قلته. وسمعت بكاءك وصياحك! وسمعتك حتى وأنت تعدهم بضرورة الكذب عليّ. أما أنا، فلا يهمني الذهاب للصيد. فصوت طلقات البنادق يخيفني جداً. ومع ذلك، أنت كذاب، والعم جول أكثر كذباً منك.

– لماذا ؟

– لأن الافتتاح غداً أنا أعرف، فقد صنعت أمي «الأومليت» بالطماطم بعد ظهر اليوم، ووضعته في أجربة الصيد، مع قطعة كبيرة من اللّحم المدخن، وقطع اللحم المملح، والخبز، وزجاجة نبيذ. وقد رأيت أنا كل شيء. فقد خبأت الأجربة في دولاب المطبخ، لكي لا تراها أنت، وسيرحلون هم في الصباح الباكر. وأنت لن تذهب..

كان هذا الإيضاح مُهيناً، وقد رفضت تصديقه.

– هل تجرؤ على القول بأن العم جول يكذب؟ وهو الذي رأيت صورته وهو يرتدي زي جاويش، ولديه وسام.

– أنا أقول لك إنهم سيذهبون غداً للصيد، فلا تحدثني بعد ذلك، لأنني أنعس.

وسكت صوت الصغير، وظللت أنا مسهد العينين، يلتهمني الشك طوال الليل. هل يمكن للإنسان أن يكذب، عندما يكون جاويشاً؟ بالتأكيد لا، والدليل على ذلك، حكاية الجاويش «بوبيو».

ولكنني تذكرت فجأة أن العم جول لم يكن جاويشاً أبداً، وإنما أنا الذي اخترعت هذا في دوامة اضطرابي. أضف إلى ذلك أنه كان له معي في ماضيه، تلك القصة الفظيعة حول ملكيته لحديقة «بورلي»...

وما الذي فعله وقتها، عندما كشفت له غشه؟ لقد غرق في الضحك، ببساطة، وبغير ندم.

مع ذلك، فقد تلمّست له العذر في هذه الكذبة القديمة، لكي أقلل من هولها، عندما عبرت ذكراها البشعة في مخيلتي.

وآخر هذا النهار، عندما قلت لغبائي إنني سأكذب على بول لمصلحته، تلقف العم جول الكرة، وأكد على كلامي بصوت عال، لكي يبرر مسبقاً تمثيليته المجرمة. وأصابني اليأس لهذه الخدعة. فحتى أبي، الذي لم يقل شيئاً! أبي هذا، كان متواطئاً صامتاً على مكيدة نسجت ضد ابنه الصغير...

أما أمي، أمي العزيزة، فقد فكرت في الكريمة المخفوقة لكي تعزيني... وغلبني التأثر فجأة لحالتي التعسة، وبكيت في صمت، وجاءني من بعيد، نعيق البومة الفضّي ليفاقم من يأسي.

وعاودني الشك، فلبول، بعض الأحيان، تصرفات شريرة؛ أيكون قد اخترع هذه القصة لينتقم لنفسه من حكاية العصفور؟

وبدا كل من بالبيت نائمين، فقمت بلا أدنى ضجة، وقضيت أكثر من دقيقة أدير بهدوء أكرة الباب... ولم ألمح وراء أبواب الغرف الأخرى أي ضوء مشتعل. ونزلت على أطراف قدمي الحافيتين، فلم تئز من تحتي أي من درجات السلم، وأعانني ضوء القمر في المطبخ، على العثور على كبريت وشمعة، وترددت لحظة أمام دولاب المطبخ الذي يختبئ الغيب به، فخلف هذا اللوح من الخشب الميت، سأكتشف إما غدر العم جول، أو خداع بول، وسيكون الأمر في كل أحواله كارثة عاطفية...

وأدرت المفتاح بهدوء... وسحبت الباب... فتحرك المصراع ناحيتي... ودلفت في الدولاب الواسع، رافعاً الشمعة في يدي، فوجدتهما: الجرابين الكبيرين من الجلد الأصهب، بجيوبهما الشبكية... وكانا منتفخين لحد التفزُّر، وقد علقت في جانبيهما «الزمازم»... وكان حزاما الخراطيش، اللذان عبأتهما بنفسي، على رف مجاور. فأي عيد تم الإعداد له! واجتاحني شعور بالمذلّة. فاتخذت قراراً قاسيا:

سأذهب معهما، رغما عنهما!

وصعدت لغرفتي بخفة القط، وأعددت خطتي .

كان لابد أولاً من عدم النوم. فلو أنني نمت، لضعت، ولم يحدث أبداً أن تمكنت وحدي من الاستيقاظ في الرابعة صباحاً. لذا، فلامجال للنوم.

كان عليَّ بعد ذلك، أن أعد ملابسي، التي كنت قد تعودت أن ألقي بها في كل الأركان... فزحفت على أربع في الظلام، ولملمت جوربَيَّ، ووضعتهما في نعلي. وبعد البحث الطويل نسبياً، عثرت على قميصي تحت سرير بول، فأعدته لمكانه، وكذلك سروالي. واضعا إيّاهما تحت سريري. ثم تمددت، معتدا بالقرار الذي اتخذته، فاتحاً عيني بكل قواي.

كان بول نائماً في هدوء. وكانت بومتان تتجاوبان بالأصوات من وقت لآخر. ولم تكن إحداهما بعيدة جداً عن نافذتي، فقد كانت بالقطع على شجرة اللوز الكبيرة. أما صوت الأخرى، فكان أقل خشونة، وكان أجمل في رأيي، وكان يأتي صاعداً من الوادي. وفكرت في أنه قد يكون صوت الأنثى التي ترد على ذكرها.

وعَبَرَ شُعاعُ ضوءٍ قمريٌّ رفيع من خلال ثقب مصراع النافذة، مما جعل الكأس الموضوعة على المنضدة، بجوار سريري، يلتمع. كان الثقب مستديراً، أما الضوء فكان مسطحاً. وحدثت نفسي بأن أطلب إيضاحاً من أبي لهذه الظاهرة.

وفجأة، بدأ فأر يحدث ضجة في الصندرة، انتهت بمعركة، مع وثبات وصرخات حادة، ثم حل صمت، وأتاني عبر حاجز الحائط، صوت شخير العم جول، ذلك الشخير الهادئ والمنتظم لرجل أمين، أو لمجرم قاسي القلب «في رأيي». كان يقول: «مارسيل يستحق أن يحضر الافتتاح معنا!»، ولكن كانت لدية الجرأة في الكذب عليّ «من أجل مصلحتي!» فهل مصلحتي هي أن أسقط في اليأس؟ أنا الذي ضممته إلى صدري على هذا النحو الرقيق! لقد كان الزعيم الهندي الملقب «بالأيل الرشيق» على حق، فالوجوه الباهتة تتحدث بلسانين! كنت أكن له، بشكل صاخب، حقداً «أبدياً».

فكرت بعد ذلك في التواطؤ الخياني لأبي، وقد عاهدت نفسي رغم ذلك أن أسكت عن هذا المشهد الأليم. ورأيتني أستحث الخطى على ممر تحيط به أدغالٌ، بلا صنوبرات، وكانت الأعشاب تربِّت على سمانتي قدمي أثناء سيري، وأنا أحمل بندقية طويلة كأنها صنارة صيد، تلتمع في الشمس، وكان معي كلبي ـ الذي هو كلب صيد أبيض على أحمر ـ، وهو يتقدمني، وأنفه تتشمم الأرض، وهو يطلق من حين لآخر نباحاً نائحاً شبيهاً تماماً بالصيحة الرتيبة للبومة؛ وكان كلب آخر يرد عليه من بعيد، وفجأة ارتفع طائر كبير، له منقار بجعة، لكنه كان حجلاً ملكياً!... ورأيته يطير صوبي مباشرة بسرعة وقوة، هي «ضربة الملك»! قلت لنفسي، فتراجعت خطوة للوراء، وصوّبت، وضغطت مرة واحدة و، طاخ! وسقط الحجل الملكي في سحابة من الريش المتطاير عند قدمي، ولم يكن لدي وقت لأنتشله، لأن طائراً آخر جاء صوبي، ثانياً، ثالثاً. وللمرة العاشرة، والعشرين، تمكنت من إنجاز «ضربة الملك»، في ظل الدهشة الكبرى للعم جول، الذي أطل من خلف أكمة برأس مروعة لكذاب. وقدمت إليه رغم ذلك الكريمة المخفوقة، وتركت له كل الحجل الرومي وأنا أقول له: «لدينا الحق في الكذب على الكبار، إذا كان في ذلك مصلحتهم».

بعد ذلك، تمددت تحت شجرة، ورحت في النوم، إلى أن جاء كلبي،

ووشوشني في أذني. قال بصوت خفيض: «أنصت، لقد رحلوا بدونك!»

واستيقظت متحسبًا لكل شيء .كان بول على مقربة من سريري يجذبني برقة من شعري.

– لقد سمعت أصواتهم، قال، فقد مرا من أمام الباب، وتنصتا علينا، ولمحت الضوء من خلال ثقب المفتاح. ثم نزلا على أطراف أصابعهما.

كان هناك صوت صنبور مفتوح بالمطبخ، فقبّلت بول، وارتديت ملابسي في صمت. وكان القمر مختفياً، والليلة غير مضيئة، وقد عثرت على ملابسي بالتحسس.

– ماذا ستفعل؟ قال بول .

– سأذهب معهم .

– هم لا يريدونك .

– سأتبعهم متسللاً من بعيد، كالهنود، طيلة الصباح... لقد قالوا إنهم في الظهيرة سيتناولون غداءهم بالقرب من بئر التوتة. وفي هذه اللحظة سأظهر لهم نفسي، فإذا طلبا مني الانصراف، سأقول إنني أخشى أن أتوه، وعندها لن يتجاسرا على إبعادي.

– لربما تلقيت صفعة قوية.

– لايهم. فقد تلقيت صفعات غيرها، أحيانا للا سبب على الإطلاق...

– لو أنك اختبأت في الأدغال، ربما يحسبك العم جول خنزيراً برياً، وقد يقتلك، ويكون ذلك بطولة له، لكنك أنت ستموت.

– لا تقلق عليّ .

واستعرت تعبيراً «لفينمور كوبر»، فأضفت : «إن الرصاصة التي قد تقتلني

لم تخلق بعد!»

– وماما، ماذا ستقول لها؟

– هل هي معهم بالأسفل؟

– لا أعرف ... فلم أسمع صوتها.

– سأترك لها ورقة صغيرة على طاولة المطبخ.

وبحذر شديد، فتحت النافذة بغير أن ألمس مصاريعها الخارجية، وتسلقت حافتها، ونظرت من الفتحة التي يدخل منها ضوء القمر.

كان النهار قد بدأ يبزغ، وبدت قمة «التاومي» زرقاء وحمراء في أعلى الهضاب التي مازالت الظلمة تغشاها بعد، ولكنني كنت أرى بوضوح الطريق المؤدي للتلال، فلم يكن بإمكانهم الاختفاء عن ناظري.

وتنصّتُ، فقد انقطع صوت الصنبور.

– وإذا طلع عليك دب؟ همس بول.

– لم يحدث أن رأى أحد دُبًا في هذه الأنحاء.

– ربما كانوا يتخفُّون. احذر جيداً. خذ معك السكين الحادة من درج المطبخ.

– إنها فكرة جيدة، سآخذها.

وسمعت في الصمت خطوات نعالٍ بكعوبٍ حديدية، ثم انفتح الباب، وانغلق. وهرعت من فوري نحو النافذة، وفتحت مصراعيها قليلاً. كانت الخطوات قد دارت حول المنزل، وظهر الخائنان، وشرعا في الصعود باتجاه تخوم الصنوبر. كان أبي قد ارتدى كاسكيتّه، وجتريه الجلديين. والعم جول، بيريهه، وحذاءيه الطويلين الجلديين. وكان مشهدهما جميلاً، برغم سوء طواياهما.

وكانا يستحثان السير كأنهما يهربان.

وقـبّلت بول، الذي عـاد للنوم من فـوره، ونزلت إلى الطابق الأرضيّ، وأشعلت شمعة بسرعة. وقطعت ورقة من كراستي.

«أمي الحبيبة، لقد خلصا إلى أن يصطحباني معهما. فلا تضطربي. احتفظي لي بالكريمة المخفوقة. ولك مني ألف قبلة.»

ووضعت هذه الورقة بالطبع على طاولة المطبخ. ثم دسست قطعة من الخبز في كيسي، مع قالبين من الشيكولاتة، وبرتقالة. وانطلقت مطبقاً يديَّ على مقبض السكين الحادة، على خطى حملة البنادق.

<> <> <>

لم أكن أراهم، ولم أكن أسمعهم، لكن عملية العثور عليهم لم تكن، بالنسبة «لكومانش»، سوى لعبة سهلة.

وصعدت المنحدر جرياً بكل خِفّتي، حتى طرف غابة الصنوبر، وتوقفت، وأرهفت السمع. وخيل لي أنني سمعت، على البعد، ضجة على الحجر. وعدوت، متجاوزاً في طريقي كل الأشجار. ووصلت في النهاية إلى أول صنوبرة في طرف هضبة، كانوا قديماً يزرعونها بالأعناب، وقد حلت محلها نباتات السمّاق، وإكليل الجبل، والعرعر، التي لم تكن شجيراتها عالية، ورأيت الكاسكيتة والبيريه على مبعدة.

كانت بنادقهما معلقة بأكتافهما، وهما مايزالان يحثان السير. وتوقّفا، بالقرب من صنوبرة كبيرة، وهبط البيريه حافة المنحدر، باتجاه اليسار، بينما

واصلت الكاسكيتة سيرها للأمام، لكنها كانت تظهر وتغطس على التوالي، كأنها كاسكيتة تمشي خطوة خطوة على أطراف أصابع الأقدام، وفهمت أن الصيد قد بدأ... وخفق قلبي بسرعة فالتقطت أنفاسي، وانتظرت.

فجأة علا دويٌّ هائل، راح يتردد طويلاً، وهو يتواثب من صدى لصدى، عبر شعاف الوادي... وهرعت إلى الصنوبرة القريبة. وتسلقتها، كارها. وجلست مُدلياً ساقيَّ حول فرعٍ كبير، خشية الظهور الفجائي لخنزير بريّ جريح، ربما هو نفسه الخنزير الذي كرَّ لمسافة ستة أمتار أمعاء الصياد المخالف الأكتع.

ولأن شيئاً لم يظهر، خفت أن يكون الخنزير بسبيله لأن يبقر بطن أبي، وصلّيت لله ـ إن كان موجوداً ـ أن يوجهه صوب عمي الذي يعتقد بالفردوس، ويتقبل الموت، لهذا السبب، بشكل أكثر طواعية.

لكن البيريه ظهر ناحية اليسار، أعلى نبتة عرعر، ملوّحا في الهواء، بطول ذراعه، بعصفور أسود في حجم حمامة صغيرة، وهو يصيح: «إنه عصفور مغرد جميل!» وهرعت الكاسكيتة التي كانت متوارية في حرش من زهور «الوزّال» صوبه. وبدا أنهما تشاورا، ثم افترقا من جديد.

وهبطت أنا إلى الأرض. وشاورت نفسي في الأمر. هل من الضروري النزول خلفهم حتى عمق الوادي؟ إن ارتفاع الأحراش سيعوقني عن رؤية الصيد، ومن ناحية أخرى ـ كما قال أبي ـ قد أعرِّض نفسي لطلقة تصيبني بطريق الخطأ. بيد أنني إذا واصلت المتابعة من علٍ، على طرف الحافة، ولكن من خلف شجر البطم، سيكون بوسعي أن أرى كل شيء بدون أن أنظر، إضافة إلى أنه، في حالة ما إذا جرحا خنزيرا برياً سأكون بعيداً عن متناوله، وسأستطيع كذلك الإسهام في القضاء على الوحش، بأن أرمي عليه من أعلى كُتلاً من الصخور. لذا، سرت بين أشجار السنديان، التي كانت تخدش ساقيَّ، وبين العرعر... ودرت دورة واسعة نسبياً على الهضبة، ثم تسللت بين الأشجار، فوصلت إلى

حافة الشعفة.

كانا في عمق وادٍ واسعٍ من الصخور الزرقاء. في منتصفه مجرى ـ جاف ـ لجدول من جداول المطر، وكانت الأشجار به قليلة، لكن أحراشَهُ كانت ترتفع فوق سيقانهم حتى الأحزمة.

كان أبي ناحيتي، يسير منحنيا نصف انحناءة. بندقيته في يده مشرعة أمامَهُ، «دبشكُها» تحت إبطه، ويده اليمنى على زنادها، واليسرى تحت حلقة الزناد، وهو يَتقدم بخطى حذرة، مقوّس الظهر، متخطياً الأحراش.

كان منظره جميلاً «جميلا ومُهدِّداً» وكنت فخوراً به. وكان العم، على المنحدر المواجه، يتبع طريقاً موازياً، ومن وقت لآخر كان يقف، ويلتقط حجراً، يقذف به في عمق الوادي، وينتظر عدة ثوان. وكنت أراهم بشكل أفضل مما لو كنت بصحبتهم.

بعد الحجر الثالث، برز طائر ضخم من حرش، وطار كالسهم للوراء، وفي سرعة رائعة. رفع العم بندقيته إلى كتفه، وصوّب. ثم أطلق، وسقط الطائر كالحجر، وخلفه بعض الريش المتطاير، الذي هبط ببطء في الشمس.

وركض أبي، قافزاً على الكُدْيات الشوكية، والتقط الطريدة، ولوح بها من بعيد للعم الذي صاح: «إنها دجاجة أرض! ضعها في جرابك، وعد إلى خطك، على بعد عشرين متراً من الجرف.»

هذه الطريقة في الحديث، وهذا الدم البارد، وهذا التحكم ألهبوا حماسي، فالعم جول قد أكد، في سطوع الشمس، صحة رواياته عن الصيد، وشعرت بأن حقدي عليه قد تلاشى. وكذلك رغبتي في سلخ فروة رأسه، «فالبافالوبيل» له الحق في أن يفعل ما يشاء، ونفخت صدري بكل قوة واعتداد وأن أفكر في أنني ابن أخت زوجته.

وواصلا مسيرهما، ولأنهما تجاوزا المكان الذي أراقب منه، انسحبت بحذر، وتراجعت بميل قوس دائرة جديد، على الهضبة البرية الهائلة، حتى أتجاوزهما بدوري.

وكانت الشمس اللاهبة على علوّ مترين من خط الأفق، فجريت وسط روائح اللافندر الصباحية التي كنت أدوس أزهارها في طريقي.

وعندما خيل لي أنني ذهبت لأبعد مما ذهبا أبطأت من سيري باتجاه الحافة، لكنني رأيت فجأة شبهَ دجاجة ذهبية تجري أمامي، كان لون ريشها عند منبت الذيل أحمرا. وشلني الانفعال، إنه حجل رومي! أجل كان حجلا روميّاً!... جرى بسرعة كالفأر، واختفى في أكمة عرعر كبيرة. وبدون أن أنظر اندفعت في هذه الأفنان الخالية من الشوك. لكن الريشات الحمراء جرت للناحية الأخرى، فلم تكن الدجاجة وحيدة، إذ أنني رأيت اثنتين أخريين، ثم أربعة، ثم عشرة... عندئذ انحرفت إلى اليمين لكي أرغمها على الهرب باتجاه الحافة. ونجحت هذه المناورة، لكنها لم تهدل في طيرانها، كما لو أن حضوري غير المسلح لم يتطلب من جانبها جهداً أكبر. عندها التقطت أحجارا وأخذت أقذف بها أمامي، وحدثت ضجة كبرى، مشابهة لضجة عربة نقل قلابة حديديّة تفرغ حمولتها من الأحجار، فارتعبت للحظة منتظراً ظهور وحش، وعرفت بعد ذلك أن هذا الصوت كان صوت تحليق السرب، الذي طار باتجاه الحافة، وغطس من ثم في الوادي.

حال وصولي إلى حافة الشعفة، دوت طلقتان في آن معا على وجه التقريب.

ورأيت أبي، الذي كان قد أطلق طلقته، يتابع بنظره الطيران المحموم للدُّرّاجات الجميلات. لكنهن انسبن مع هواء الصباح، بلا أية رعدة.

عندها، ومن بين باقة كثيفة من الزهور، برز البيريه، الذي كانت تعلوه

البندقية، وأطلق بتمهل، فانقلب الدراج الأول ناحية اليسار، وسقط، منتزعاً من السماء. وانعطفت الأخريات جهة اليمين، وتحركت البندقية مسافة ربع دائرة. ودوت الطلقة الثانية، وظهر دراج آخر مصاباً بشدة، وسقط تقريبا بشكل عامودي. وصحت من فرحتي، في صوتٍ خفيض... وبعد شيء من البحث، جمع الصيادان الضحيتين اللتين كانت تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة خمسين متراً. ولوّحا بهما بطول ذراعيهما. صاح أبي: «برافو!» لكنه أثناء ماكان يضع الدراج في جرابه، وثب وثبة صغيرة في مكانه بعصبية، وهو يستعيد الأظرف الفارغة لبندقيته، كان أرنب بري جميل يمرق في تلك اللحظة بين رجليه، بغير أن ينتظره حتى ينتهي من هذه العملية، واندفع في الحرش، ذيله في الهواء، وأذناه مسددتان للأمام... ورفع العم جول ذراعيه لأعلى:

ـــ ياللأسف! لابد أن تعمر في التو! فبعدما نضرب، نُعمِّر!!!

وفرد أبي المحزون ذراعين مصلوبتين، ثم «عمّر» في تعاسة.

أثناء هذه العملية كلها، كنت واقفاً على طرف الحافة. لكن الصيادين المنبهرين بالدراج لم يروني. وانتبهت فجأة لتهوري، وخطوت بضع خطوات إلى الوراء مختفياً من جديد.

كنت واجماً بسبب إخفاقنا، الذي اتخذ أمامي وضع الكارثة. فقد أخطأ مرتين تصويب «ضربة الملك»، وجعله هذا الأرنب البري يجفل قبل أن يزوغ أمامه ليسخر منه. كان الأمر مهزلة محزنة.

وتلمست له بعد ذلك الأعذار، فبما أنه كان تحت الحافة مباشرة، لم يكن لديه الوقت ليرى مقدم الدراج. في الوقت الذي تمكن فيه العم جول من الإطلاق في وضع أفضل. وكأنه في حالة التدريب.

من جهه أخرى، لم يكن أبي قد تعود بعد على بندقيّته. وقد قال العم بوضوح إن هذا هو أهم شيء بالنسبة للصياد. ثم إن هذه كانت رحلة صيده

الأولى، وكان هذا هو انفعاله الأول بالصيد، وهو السبب الذي لم يجعله يفكر في «التعمير» بعد الإطلاق مباشرة. لكنني، كان عليَّ في نهاية المطاف، أن أعترف بأن مارأيته كان يؤكد ما خشيت منه، وقررت ألا أحدِّث أحداً في هذا الشأن على الإطلاق. خصوصاً هو.

ماالذي سيحدث له الآن؟ هل سيتمكن من أن يحقق ضربة مُشَرِّفة؟ إنه أبي، أستاذ المدرسة وعضو لجنة امتحان الشهادة العامة، الذي يقذف كرات الحديد بكل دقة، وكثيراً ما يلعب الضامة ضد «رافائيل» البارع أمام دائرة من «الحرِّيفة». ترى هل سيعود بخُفَّي حنين بينما يعلق العم جول على أكتافه في عودته، الأرانب البرية والدراَجات كأنه واجهة محل؟... لا، هذا لن يكون، سأتبعه طيلة اليوم، وسأطارد أكبر ما يمكنني مطاردته من الطيور، والأرانب، والأرانب البرية، وأبعث بها صوبه، حتى يتمكن من صيد إحداها!

كنت أفكر على هذا النحو، وأنا مستند لصنوبرة، كانت صراصير التلال الصغيرة السوداء تقرض أعوادها الجافة، في عبق من رائحة الراتنج الساخن، وكنت أمضغ بعصبية غصناً من إكليل الجبل. وواصلت طريقي، مهموماً، يداي في جيوبي، ورأسي مطأطئة. واسترعى انتباهي صوت طلقة بندقية باهت بسبب البعد. وهرعت إلى طرف الحافة. كان الصيَّادان قد تناءيا، ووصلا إلى طرف الوادي، الذي يفضي إلى سهل صخري كبير... وجريت لألحق بهما. لكنني وجدتهما يتحولان جهة اليمين، ليختفيا في غابة صنوبر، وراء قاعدة قمة «التاومي» التي كانت في تلك اللحظة ماثلة أمامي.

وقررت الهبوط إلى أسفل الوادي، وتتبُّع آثارهم... لكن الحافة كانت بارتفاع مائة متر، ولم أجد منفذاً أهبط منه. عندئذ فكرت في العودة على أعقابي، لكي أجد الطريق الذي سلكوه عندما تركتهم، لكننا كنا مشينا أكثر من ساعة. وحسبت أنني تلزمني عشرون دقيقة على الأقل للعودة ـــ بخطوة سريعة ـــ حتى النقطة التي بدأت منها. وعندها كان الأمر يتطلب مني أن أجتاز

بعد ذلك كل الوادي، حيث سيكون من الصعب عليّ الجْري. بسبب النباتات الشوكية التي ترتفع إلى أعلى من مستوى رأسي، وسيستغرق ذلك مني نصف ساعة. فأين سيكونان بعد كل هذا؟ وجلست على حجر، لكي أعيد التفكير في الموقف.

هل يجب التحامق إذن، والرجوع للمنزل؟ لسوف أفقد هكذا بالطبع، احترام بول، وستتأسى أمي لي برقة تخزيني. فلن تكون لي حكاية يمكن استحسانها، رغم أنه سيظل لي مع ذلك فضل المحاولة الشجاعة، والعودة المحفوفة بالخطر. ولكن هل من حقي أن أترك جوزيف، ببندقيته المضحكة، وعوينات قصر النظر التي يضعها، يناضل وحيداً ضد ملك الصيادين؟ لا. فهذه خيانة ستكون أسوأ من خيانته لي. ثم هل إن المشكلة هي اللحاق بهم... خشية أن أتوه وحيداً؟

ودفعت عن نفسي هازئاً ذلك الخوف الطفولي، فلم يكن أمامي إلا الاحتفاظ بالأعصاب الهادئة لعزيمة «كومانش» حقيقي، وبما أنهما التفاً حول القمة من أسفلها، متجهين من اليسار إلى اليمين، فسوف ألقاهم حتما إذا واصلت طريقي للأمام. وحاولت حساب مساحة «التأومي». وكانت هائلة. وكانت المسافة التي عليّ قطعها بالطبع طويلة جداً. وقررت أن أستجمع قوتي وأن أهرول خبباً بطريقة الهنود، المِرْفَقَان ملتصقان بالجسد، واليدان متقاطعتان على الصدر، والأكتاف مفرودة للوراء، والرأس منحنية للأمام. وأن أجري على أطراف أصابع قدمي. مع وقفة كل مائة متر، للتنصُّت على ضجيج الغابة، والتنفس ثلاث مرات بهدوء وعمق.

وبتصميم هندي خالص، بدأت السير.

كان المنحدر الذي يصعد أمامي بالكاد محسوساً، وكانت أرضيته عبارة عن بلاطة هائلة من الحجر الجيري مائلة للزرقة، مصدوعة من الجانبين بشقين ينمو عليهما السَّعتر، والسَّذاب، والخزامي... ومن حين لآخر كانت تبرز من الحجر

مباشرة شجرة عُرعُر قوطيّة أو صنوبرة، جذعها الكثيف الملتف، يتناقض مع ارتفاعها، الذي كان، إلا فيما ندر، في طول قامتي، مما يوضح أن هذه العطشى ناضلت لسنوات في صراع وحشي ضد الحجر الصلد، وأن نقطة واحدة في رحيقها كلّفتها صبر أيام. وكان قمة «التاومي»، إلى يساري، المخضلة بالسماء، زرقاء زرقة شاحبة، ذات لون فاتح كلون الغسيل، وخببت باتجاه كتفي الأيسر، عبر هواء متبخر، جعله الحر يتراقص أمامي. وكنت كل مائة متر، بحسب التقليد الهندي، أتوقف، وأنفخ صدري ثلاث مرات.

بعد عشرين دقيقة، وصلت إلى أسفل القمة، وتغير المنظر الطبيعي، فقد اعترض الهضبة الصّخريّة مدخل مجرى طبيعي، تحفه الكتل المهّدمة، والصنوبرات الكبيرة، والأحراش العالية. ووصلت بسهولة لقاع المجرى، لكنه كان من المستحيل عبور الحافة المقابلة، فقد ضللّني البعد في حساب ارتفاعها. لذا تابعت المسير في قاع الجرف، حتى أعثر فيه على منفذ.

وأبطأت في الخبب الهندي بسبب من إعاقة ستائر ياسمين البر وتكاثف أشجار البطم الصمغي. وكانت أوراق السنديان ذات الأشواك الأربعة المتماثلة على سطوحها، تندس في خفي، الذي كانت حافته الجانبية تنثني وتنفرج قليلا بسبب السير على أطراف القدم فكنت أتوقف من حين لآخر لأنتزعها، وأفرغ الخفين منها بنفضهما على الصخر.

كانت الطيور تحلّق طيلة الوقت عند قدمي، أو فوق رأسي... ولم أكن أستطيع النظر من حولي لأبعد من عشرة أمتار، فقد حجب الحاجزان الحجريان للمضيق، والأشجار والأكم بقية العالم.

وبدأت أقلق بشدة، لذا أخرجت من كيسي السكين الحادة القاطعة، وأطبقت كفي بشدة على مقبضها.

ولم يكن الجو صافياً، وكانت الرائحة الطاغية للتل تملأ عمق الوادي،

كأنها دخان لا يرى. وكانت روائح السعتر والسّذّاب وإكليل الجبل تُخَضّر الرائحة الذهبية لشجرة الراتنج، التي كانت دمعاتها الطويلة تنسال لامعة في الظل الواضح فوق اللحاء الأسود، وتابعت سيري بلا أدنى ضجة في صمت ووحدة. إلى أن انطلق صوت مرعب على بعد خطوات مني.

كان الصوت خليطاً مما يشبه البوق المضطرب، والزفرات المتقطعة، والصرخات اليائسة. وكانت هذه الضجة الغامضة كابوسية وجلية، وقد فاقمت منها ترجيعات الأصداء المتتابعة في الخور، التي ضاعفتها.

وتوجهت متجمداً من الرعب للمكان الذي جاءت منه، وكنت أرتجف كلية، في صمت أُطبَق بعدها، وبدا لي أكثر هولاً. وفي هذه اللحظة، دحرجت هرولة أرنب أعلى الحافة من ورائي مباشرة حجراً. وسقط الحجر فوق كوم من الصخور الزرقاء كان له شكل خيال المآتة، كان جاثماً على المنحدر الصلد الذي يشبه الشرفة. وتحرك الكوم متزلّقا، في ضجة تشبه ضجة تساقط وابل من الحجر، وانهال انهيال الطامّة حتى بلغ كعبي وكاد يغمرها، عندها قفز الزعيم الكومانشي المسكين كحيوان مذعور، ووجد نفسه فجأة معلقاً بمنتصف صنوبرة، كنت أحتضن جذعها وأضمه إلى صدري كما لو أنها أمي. وتنفست بعمق، وتنصّتت في الصمت، كان بودي أن أستمع إلى صرير صرصور، ولكن شيئا من هذا لم يكن.

كانت الأغصان من حولي كثيفة، تصعب الرؤية من خلالها، ونظرت للأسفل، فشاهدت شفرة سكيني تلتمع، فوق الأغصان المتساقطة الجافة.

وما إن تأهبت في صمت للنزول، حتى انطلق خليط الأصوات المهدِّد من جديد، أكثر عنفاً من المرة الأولى. وشلني الخوف، فصعدت حتى قمة الصنوبرة، وأنا غير قادر حتى على مواصلة تأوهاتي الضعيفة... وعلى حين غرة،

لمحت، على الأغصان العالية لسنديانة جافة، عشرة طيور لامعة، كانت أجنحتها زرقاء غامقة تقطعها خطوط بيضاء. وكانت رقابها و أعجازها من لون سمني، وأذيالها سوداء على أزرق، وكانت مناقيرها صفراء بلون الكناريا. ولغير ما سبب، وكأنما كان الأمر ممتعاً لهم، كانت الطيور ترفع رؤوسها للوراء، وهي تزعق، وتصيح، وتزفر، وتنعي، بقوة شيطانية، وقد حل فيها الغضب محل الخوف. فهبطت نازلاً حتى أسفل الصنوبرة، والتقطت سكيني، والتقطت كذلك حجراً بديعا مفلطحاً، وجريت صوب شجرة هؤلاء المعتوهين. ولكن بسبب الضجة التي أحدثتها في سيري، طارت العصابة كلها، وانتقلت بضجيجها ولغطها الهزلي إلى صنوبرة بأعلى الحافة.

وجلست على كوم ملتهب من الحصى، بذريعة أن أنفض خفيّ ثانية، مما علق فيهما، وكنت في واقع الأمر أهدف للراحة من هذه الانفعالات. وقرقشت قالبا من الشيكولاتة.

وتنصتّ طويلاً إلى التل، فلم يتناه إلى سمعي سوى صمت الموت. فما هذا؟.. ألا يوجد صياد واحد يوم الافتتاح؟... ولقد عرفت، فيما بعد، أن أهل هذه المنطقة لا يخرجون أبداً في هذا اليوم، كما لو أنهم يخجلون من طلب «الترخيص» بالصيد فيه في أرضٍ هي لهم، خشية غضب رجال درك «أوبان»، الذين يثير غيظهم الافتتاح بصفة خاصة.

ونظرت خلفي، لكي أحدد مسافة الطريق الذي قطعته، فرأيت جبلاً غير معروف، يرتفع عالياً في السماء. كان هو القمة الصخرية التي تعلو فوق خمسمائة متر على الأقل، قمة «التاومي»، ولأنني لم أر من قبل سوى منظرها الجانبي، لم أتعرف عليها في هذا الوضع. بنفس الشكل الذي رأى به الفلكي الأول الناحية الأخرى من القمر، وسجله على أنه فلك جديد.

وأصبحت حائراً، وقلقاً بالتالي. ونظرت ثانية على جميع النواحي، فلم أر

أي معلم، وقررت لهذا أن أعود للبيت. وفكرت، حفاظاً على ماء وجهي، في ألا أتوجه مباشرة للبيت، وأن أنتظر عند تخوم غابة الصنوبر القريبة منه عودة الصيادين، وأرجع معهم.

وقفلت رجعاً، مقتفيا آثار أقدامي، وهو الأمر الذي كان يبدو لي في الظاهر سهلا، فلم أكن قد حسبت حساب لؤْم الأشياء. كانت الطرق التي خلفتها ورائي قد غيرت هيأتها، فالممر الذي ظهر قبلاً إلى اليمين، غير رأيه في العودة وصار ينحرف يساراً... والذي كان يهبط بانحدار خفيف، صار يصعد ككوم من الرَّدْم. وكانت الأشجار تتشابك في الاتجاهات الأربعة.

مع ذلك، ولأنني كنت في عمق الخور، لم يكن مسموحاً لي بترف التشككُ فاكتفيت بالتراجع على عقبيَّ، وصعدت الوادي، بغير أن أضع في حسباني حيل الأشياء الشيطانية.

عدت على عقبي، وسكيني في يدي، وككومانش طيب ، رحت أبحث عن آثاري، في علامة تركتها هنا، أو غصن كسرته هناك. ولم أجد شيئاً من هذا. وفكرت في الذكاء الرائع للقطة الصغيرة بالقصة المدرسية، بسبب ابتداعها العبقري للآثار الاصطناعية، وكيف لم يعد بعد في الإمكان تقليدها.

ووصلت فجأة إلى ما يشبه مفترق الطرق، فقد تشعبت «الرقصة» في ثلاث شعاب تعد كل منها على شكل «تقفيصة» بين الأكم حتى خاصرة القمة الغامضة... ولم أكن قد رأيت أثناء نزولي الشُّعبتين الثانيتين... كيف حدث هذا؟ رحت أفكر وأنا أحدق في الشعاب الثلاثة الواحدة بعد الأخرى... وفهمت أن الأحراش كانت أعلى مني وأعاقتني عن الرؤية؛ فأثناء النزول، وبينما كنت أنظر أمامي، لم أر إلا الخور الذي كنت أتبعه، والذي كان، كما قلت، أعوج. ولكن أين الطريق الذي سلكته؟ وكان علي أن أعقل وأفهم أنني كنت قد نزلت في الخور الأول الذي على يساري، بما أنني فوق الهضبة، ولم أكن

قد عبرت أياً من الطريقين الآخرين. لكن الزعيم الكومانشي التعس، انتهى إلى عدم معرفة اتجاه الشمال، فجلس متهالكاً على الأرض، وشرع في البكاء.

مع ذلك، فهمت سريعاً اللا جدوى المخجلة لهذا اليأس، فقد كان يجب فعل شيء ما، وعليّ أن أتصرف بسرعة، كرجل. وأن أستعيد قواي، أولا، لأنني برغم الصلابة الهائلة لسيقاني، شعرت بتعب مقلق.

في مدخل الشعبة كانت تنتصب شجرة بلُّوط خضراء بسبعة أو ثمانية جذوع، مبعثرة في دائرة، وكانت أغصانها الداكنة الخضرة تبرز في جزيرة من الأحراش تختلط منها نباتات «الأرجيرا» «بالسنديان» وبدا لي هذا الحشد من النباتات الخضراء الشائكة شيئا يمكن عبوره ؛ لكنني «عَمّدتُ سكيني «ساطورا»، وشرعت أُمهّد لنفسي بها ممرا.

وبعد ربع ساعة من العناء، وألف لذعة لاهبة، اجتزت الدائرة المنيعة، وتراءى أمامي بين الجذوع حيز كبير مستدير من عشب «الباووكو». وجلست فيه بإحساس مشجِّع بالأمن، فقد كنت في موضع لا يراني فيه أحد، كما أنني لاحظت أن أحد الجذوع يسمح بالتسلق السهل، وهي ميزة لا تقدر بثمن في حالة وجود خنزير برِّي جريح. وتمددت على ظهري في العشب الطري، عاقداً يديّ تحت رأسي. وكانت بمنتصف البلوطة فرجة كبيرة تسمح برؤية السماء، كان يقف على جذع بمنتصفها طائر من سباع الطير شبه ساكن، يراقب الممر. وخطر لي أن هذا النسر — أو الكوندور — يرى في هذه اللحظة نفسها أبي وعمي وهم بسبيلهم لشواء اللحم على نيران أغصان إكليل الجبل، فقد كانت الشمس في أوجها.

بعد راحة استمرت دقائق، فتحت كيسي، وأكلت، بشهية عظيمة، الخبز والشيكولاتة، لكني لم أكن أحمل معي شيئاً أشربه، وكان حلقي شديد الجفاف.

كانت لديّ رغبة في التهام البرتقالة. لكن الكومانش يعرف كيف يتوقع السوء. وأعدتها لكيسي، بما أنه كان في حوزتي مصدر آخر. فقد عرفت ــ من قراءتي لجوستاف أيمارد ــ أنه يكفي أن تمتص زلطة لتشعر بإحساس الانتعاش اللذيذ. ولم تدخر الطبيعة المتبصّرة وسعا في توفير الزلط، في هذا الصقع المحروم من الموارد. وتخيّرت زلطة مستديرة، ملساء في حجم الحمُّصة، ودفعت بها، بحسب التكنيك، تحت لساني

كان الوادي الأيمن الضيق يصعد باتجاه السماء؛ ورأيت على بعد مائتي متر أمامي، أنه ينتهي أمام ركام منحدر ناعم، بما يسمح لي بالصعود إلى سفح، أتمكن منه أخيراً من أن أشرف على مجموع المنظر الطبيعي، وربما أرى منه القرية، أو منزلنا. فاستجمعت للتوّ ثقتي، وشرعت في المسير بخطوة خفيفة.

◇ ◇ ◇

كان هذا الوادي، مثله مثل الوادي الآخر، مليئا بالأحراش الشوكية، لكن العرعر وإكليل الجبل كانا هما الأكثر انتشاراً به. وبدت لي هذه النباتات أقدم عمرا من تلك التي رأيتها من قبل، واستحسنت شجرة عرعر عريضة جداً وعالية كأنها كنيسة قوطية صغيرة، وكان نبات إكليل الجبل أطول مني بكثير. ولم تكن ثمة مظاهر كثيرة للحياة في هذه الصحراء، اللهم إلا صرصور صنوبر كان يصرّ برخاوة، ثلاث أو أربع ذبابات صغيرة، زرقاء لازوردية، كانت تتبعني، بلا كلل، وهي تطن كأنها أشخاص كبار.

فجأة مرق ظل فوق الحرجة. فرفعت رأسي، ورأيت النسر الأمريكي. كان يهبط من قمة السماء ويحلّق بجلال، وبدا لي أن طول جناحه يعادل مرتين

طول ذراعي. وابتعد ناحية اليسار. وخطر لي أنه قد أتى بدافع الفضول الخالص، ليلقي نظرة على هذا المتطفل الذي تجاسر على التسلل لمملكته. لكنني رأيته ينعطف انعطافة كبيرة خلفي عائداً لناحية اليمين، واستنتجت عندئذ بفزع أنه يقوم بعمل دورة كنت أنا مركزها، وأنه كان يهبط من خلال هذا الدوران شيئاً فشيئا نحوي!

عندها فكرت في حكاية النسر الجائع، الذي تعقب يوما، عبر سهل معشب، قصّاص أثر كان جريحا وعلى حافة الموت من العطش. «فهذه المخلوقات المفترسة تتعقب الرحالة الخائر القوى لأيام كاملة، وتعرف كيف تصطبر حتى نزعه الأخير، لتنهش من لحمه المختلج مِزَقَهُ المدمّاة».

وأمسكت عند ذلك بسكيني ـــ التي كنت قد تغافلت وأعدتها للكيس ـــ وسننتها بشكل ظاهر على حجر. وخيل لي أن تحويمة الموت قد كفت عن الهبوط. ولكي أظهر للوحش المفترس أنني لم أكن على حافة التهالك، أخذت أرقص رقصة بربرية، ختمتها بقهقهة ساخرة، ردّدتها أصداء الوادي عاليا بما أخافني أنا نفسي... لكن نهّاش اللحم المدمّى لم يبد عليه الخوف، وواصل هبوطه المشؤوم. وبحثت بعيني ـ الأعين التي سينقرها بمنقاره المعقوف ـــ عن ملجأ، ووجدت، لحسن الحظ!، على بعد عشرين مترا جهة اليمين، حفرة مُحْدَوْدِبَة مفتوحة في الجدار الصخري، فلوحت بسكيني الحادة في الهواء وصرخت مهدداً بصوت مختنق، وأنا أتجه صوب ملجيء الأخير... فعدوت في خط مستقيم نحوه، عبر العرعر وإكليل الجبل. وكانت ساقاي تمزقهما أشواك السنديان، الطالعة في حصباء الأحراش تلك التي كانت تلتف على قدميّ... وصار الملجأ على بعد عشر خطوات، وكنت قد تأخرت للأسف! فقد توقف طيران القاتل على مسافة عشرين أو ثلاثين متراً فوق رأسي، ورأيته يرعد أجنحته الهائلة، ويمد رقبته في اتجاهي، وفجأة أهوى ناحيتي، بسرعة الحجر الساقط. وخبأت عيني خلف ذراعي من الخوف، وانبطحت على بطني تحت عرعرة

كبيرة صارخا بيأس. في نفس هذه اللحظة دوّت ضجة. كضجة عربة نقل أحجار تفرغ حمولتها. كان سرب من الدرّاج مفزعاً، على بعد عشرة أمتار أمامي، ورأيت ارتفاع النسر بفريسة، وهو يطير بسرعة وقدرة حاملاً بين مخلبيه درّاجا مرتعداً، يتطاير منه في السماء بعض الريش القانط.

وزفرت في ألم عظيم ببعض تنهدات عصبية، فقد استنكر قلبي الصادق هذا الفعل، ووجدت أنه مهما كان الخطر قد زال، فإن عليّ اللجوء إلى الملجأ لمحاولة استعادة هدوء أعصابي.

كان الملجأ صدْعاً في الجدار له شكل الخيمة، وكان أطول مني بقليل، وبعمق قدمين. وركلت بضع ركلات أعشاب «الباووكو» التي افترشت الأرض، ثم فكرت في الموقف كله، وأنا مسند ظهري للحائط.

وانتبهت إلى أن النسر لم تكن لديه نية مهاجمتي، فقد كان يطارد الدُّرّاجات، هذه الطيور التعسة التي هربت أمامي طويلاً، بغير أن تحلق طائرة، بسبب من القاتل المحلق، الذي كان ينتظرها عند إقلاعها... وطمأنتني هذه النظرية بخصوص ما سيحدث، فالنسر لن يعود ثانية.

وفرحت بعد ذلك بعثوري على زلطة ناعمة جداً ومستديرة، لتهدئة عطشي، لأنني أدركت أنني كنت قد ابتلعت الأولى، بسبب اضطرابي.

وشعرت باحتكاك في خدي الأيمن. فوضعت يدي عليه، لأهرشه، لكن كفّي التصقت به. لأنني كنت قد تلوثت بالصمغ، عندما ضغطت نفسي إلى شجرة الصنوبر، عندما أخافتني الطيور الزرقاء. وكنت أعرف بالخبرة، أننا إذا لم نضع الزيت أو الزبدة، في هذه الحالة، فلا يكون أمامنا إلا أن نحتمل الاحتكاك، والشعور بأن لنا خدّاً من الكرتون. ولكننا عندما نكون قد اخترنا أن نكون كومانش، فإن تعاسة صغيرة كهذه ليس من شأنها حتى مجرد أن تثير اهتمامنا.

وكانت حالة سيقاني مقلقة أكثر. فقد حزّزتها خدوش حمراء طويلة، تقاطعت كأنها الحرش المتشابك. وكان عدد هائل من الأشواك الرفيعة مازال مغروساً فيها. فأخذت أنزعها بصبر. بأظفري، الواحدة بعد الأخرى. ولأن الجروح الصغيرة الناجمة عنها أوجعتني، رحت أقطف بعض النباتات، فكل شخص يعرف أن نباتات التلال تساعد على سرعة التئام الجروح... وقد أخطأت اختيار نوع النبات بغير شك، لأنني بعد أن فركت جروحي جيداً بالسعتر وإكليل الجبل، شعرت بحريق هائل جعلني أترقّص وأنا أصرخ من الألم... ولكي أهدئ من روعي. أكلت في التو نصف البرتقالة، الأمر الذي جعلني في أحسن أحوالي.

وشرعت في الصعود إلى الهضبة، لكن ارتقاء الأنقاض الأخيرة كان أصعب مما تصورت، وتكشف لي أن الأنقاض كانت قابلة للانهيال، فعندما شارفت قمّتها تقريباً، وأنا أزحف على أربع، سقطت إلى الوراء على حصيرة متحركة ناعمة من الزلط. وكاد اليأس من بلوغ هدفي يصيبني، حين اكتشفت منفذاً صاعداً، ضيقاً بعض الشيء بالنسبة لرجل، لكنه كان مناسباً لي.

ووصلت أخيراً للهضبة، وكانت هائلة الاتساع، وخالية تقريباً من الأشجار. لكنها كانت مليئة بالشوك. وإكليل الجبل، والعرعر، والسعتر، والسُّذاب، واللافندر.

وكانت الصنوبرات الصغيرة ذات الجذوع الغارقة، المائلة باتجاه الريح، والبلاطات الحجرية الكبيرة الزرقاء، منتشرة بها. ونظرت في جميع الاتجاهات. فوجدتني محاطا بالتلال التي تحف بها دائرة من الجبال التي لا أعرفها. وكان الموقف خطيراً.

وقررت أنه يجب عليّ أولاً أن أحدد اتجاهي. كان أبي قد قال لي مرة: «إذا أنت نظرت لجهة الشرق أمامك، يكون الغرب وراءك، وإلى يسارك تجد الشمال،

وإلى يمينك الجنوب. إنها مسألة بسيطة كصباح الخير!».

نعم، هي مسألة سهلة جداً. ولكن أين الشرق؟. ونظرت إلى الشمس. كانت قد عبرت منتصف السماء، لأنني كنت أعرف أن الظهر قد فات، كنت سعيداً جداً باكتشافي لاتجاه الغروب.

وأوليت للشمس ظهري. وفردت ذراعي، وأكدت لنفسي بصوت عال: «الجنوب إلى يميني، والشمال إلى يساري». بعدها، لاحظت أنه، بسبب فقدان المعالم، لم تنفعني هذه المعرفة الرائعة بشيء. ففي أيّ اتجاه يقع منزلنا؟ لقد جعلني هذا الوادي الملعون أدور حول نفسي عدة مرات... وخارت عزيمتي. وبسبب من عزيمتي الخائرة ومن يأسي. قررت أن ألعب لعبة أخرى.

بدأت بقذف الأحجار على طريقة الرعاة، وأنا أخبط بقبضتي على فخذي. وكانت توجد على هذه الهضبة، تشكيلة رائعة من الزلط الرفيع، والمفلطح تماماً، بجميع الأحجام. فكنت أقذف الزلطة في الهواء، لتطير وتدور حول نفسها بسرعة عجيبة. ولأنني ركزت في مهارتي صارت تطير أبعد فأبعد. واصطدمت الزلطة العاشرة بعرعرة، فبرزت من تحتها سحلية جميلة خضراء، كانت بطول ذراعي... وانسربت كزمردة طويلة واختفت في باقة أخرى من العرعر... وجريت، وفي كل يد من يديَّ حجر. ولكي أخيف السحلية، قذفت بالحجر الأول. فلمحت في نفس اللحظة ظهور كائن غير عادي من بين الخضرة الكثيفة، كان سمينا كفأر الحقول. قفز قفزة لا تقل عن الخمسة أمتار، ليسقط على لوح عريض من الصخر، لم يمكث فوقه سوى ربع ثانية، كان كافياً مع ذلك لأن أرى أن له هيئة «قنغر» صغير. فقد كانت قدماه الخلفيتان طويلتين للغاية وسوداوين وملساوين كقدمي الدجاجة. بينما كان يكسو جسده فراء بنّي فاتح تتقدمه أذنان مدببتان. وأدركت أنه «يربوع»، لأن العم جول كان قد وصفه لي. وبرز ثانية، في خفة الطائر وقطع في قفزات ثلاث

غابة من الأشواك السنديانية الصغيرة. وحاولت عبثاً اللحاق به فيها ولكنه اختفى، ولكنني أثناء بحثي عنه، اكتشفت شيئاً يشبه الكوخ المخروطي من الأحجار المفلطحة، المرصوصة فوق بعضها بمهارة شديدة. فكان كل صف دائري منها. يضيق في توجهه لصوب المركز، بمقدار عرض أصبع. وكما نجد في بنية القمة، كانت الدوائر التي تضيق في كل سطر منها تتقابل في النهاية، وقد ترك السطر الأخير فراغا بمنتصفه بحجم الطبق، تمت تغطيته بحجر جميل مفلطح. وذكرني هذا المأوى بموقفي التعس، فالشمس كانت تهبط نحو خط الأفق، وربما كان لكوخ الراعي هذا أن ينقذ حياتي...

ولم أدخل فيه مباشرة، فالكل يعرف أن كوخاً متروكا في البراري، قد يخفي أحيانا هندياً من «السّيو» أو الآباش. لذا فإن سهماً هندياً ما مختبئاً في ظله، قد يكون جاهزاً لشق رأس عابر لا مبالٍ... وقد يكون فيه أيضاً ثعبان، أو عناكب سامة أو عقرب رمال ضخم. من النوع الذي يثب في وجهك وهو يصفر...

وتفحصت الداخل، ناظراً من الكوة. ولم يكن به شيء، اللهم إلا طبقة من العشب، كانت محلاً لنوم أحد الصيادين. ودخلت في الكوخ، الذي وجدته رطبا وآمنا. وفكرت في أنني سيمكنني هنا على الأقل، قضاء الليل في مأوى من وحوش الليل، كالأسد، أو الفهد، ولكنني لاحظت قلقاً، أن فتحة الكوخ لم يكن بها باب!.. وخطرت لي مباشرة فكرة أن أجمع عدداً كبيراً من الأحجار المفلطحة وأسدّها بجدار صغير، عندما تحين الساعة التي آوي فيها إلى قلعتي. لذا استبدلت بهذ الشكل دوّرِي كناصب فخاخ، ودهائي ككومانش، بالمثابرة الشجاعة لروبنسون كروزو.

وأصابتني خيبة أمل عندما لم أجد حجراً واحداً مفلطحاً حول الكوخ. أين إذن وجد الراعي الأحجار التي استخدمها؟ وفهمت بلمعة عبقرية أنه استخدم الأحجار التي كانت موجودة كلها فلم يعد منها شيء. ولم يبق أمامي أنا إلا أن

أفتش عنها بعيداً، وهو ماقمت به، بنجاح...

وأثناء ما كنت أقوم بنقل الأحجار ـ التي سلخت يدي ـ فكرت في أنه «حتى هذه اللحظة، لم يقلق أحد عليّ. فالصيادان يتصورانني بالمنزل، وأمي تعتقد أنني معهما... ولكن أية كارثة ستحدث! عندما يعودان، فقد يغمى على أمي، وستبكي في كل الأحوال». ودفعني هذا أنا نفسي للبكاء، وأنا أحمل على بطني التي انهرست، حجراً مفلطحاً تماماً، كان يزن مثل وزني تقريباً.

وودت لو أفعل كروبنسون كروزو، وأتوجه للسماء بصلاة ورعة، كي أحصل على عون العناية الإلهية. لكنني لم أكن أعرف الصلوات. ثم، إن العناية الإلهية ـ التي لا وجود لها وتحيط بكل شيء ـ لم تكن تهمني في شيء.

مع هذا، تذكرت قولاً يقول: «ساعد نفسك، تساعدك السماء». لذا فكرت في أن شجاعتي كانت بحاجة لصلاة، وواصلت نقل الأحجار وأنا أبكي. وفكرت في «إن ماهو مؤكد أنهم سيجدُون في البحث عني... وأنهم سوف يطلبون عون الفلاحين، وأنني سوف أشهد، عندما تخيم الظلمة، سطراً طويلاً من بطاريات الإضاءة يصعد ناحيتي «من غابة الصمغ»، وأنه سيكون عليّ في هذه الحالة أن أتمكن من إشعال نار، «على أعلى صخرة بالجبل».

ولم يكن معي، لسوء الحظ، كبريت. وهذه الطريقة الهندية، التي ينجحون بها في إشعال العشب الجاف بالحك البسيط لقطعتين من الخشب، وبلا أدنى صعوبة، حاولت تنفيذها قبلاً عدة مرات، وحتى بمساعدة بول ـ الذي كان يجهد رئتيه بالنفخ ـ ولم أحصل أبداً على أية شرر، وكنت أعزو فشلي شبه النهائي في ذلك، لسبب عدم وجود خشب أمريكي مخصوص، أو لعدم وجود نوع خاص من العشب. فهل ستكون هذه الليلة إذن سوداء ورهيبة، وهل يحتمل أن تكون هي الليلة الأخيرة في حياتي؟

إن هذا هو ماساقني إليه عدم طاعتي وعصياني للعم جول.

وعادت إلى ذاكرتي جملة كثيراً ما كان يرددها أبي، وكان يجلعني أنسخها عدة مرّات عندما كان يعطيني درساً في الكتابة (لتعلم الخطوط المختلفة).

«لاحاجة للتمنّي عند الاجتهاد، ولا للتوقّف عند الحصاد»

وقد شرح لي معناها طويلاً. وقال إنها أجمل عبارة في اللغة الفرنسية. وكرّرتها عدة مرات، وكما لو كانت عبارة سحرية، شعرت بسببها أنني بلغت مبلغ الرجال وانتابني الخجل لأنني بكيت، ولأنني أصابني اليأس.

كنت قد تهت في التل، وهذا هو المأزق! وفكرت في أنني منذ مغادرتي للبيت، كنت أصعد باستمرار تقريباً على منحدارت جافة، وأنه ليس أمامي سوى العودة نازلا، وسوف أجد بالقطع قرية، أو على الأقل طريقاً مسكوناً.

وأكلت في هدوء النصف الثاني من البرتقالة، ثم انطلقت أعدو، بساقيَّ المحترقتين وقدميّ الممزقتين، على المنحدر الخفيف للهضبة.

وأخذت أكرر لنفسي العبارة السحرية، وأنا أثب فوق نباتات الكاد والعرعر. وكانت الشمس قد بدأت في الاحمرار إلى يميني، من خلف غلل السحاب. كأنها مرسومة على علبة حلوى عيد الميلاد.

وعدوت بهذا الشكل لأكثر من ربع ساعة، بخفة، في البداية كاليربوع، ثم كالماعز، ثم كالعجل الصغير. وتوقفت لألتقط أنفاسي. وعندما نظرت خلفي، خلصت إلى أنني قطعت مسافة كيلو متر على الأقل، وإلى أنني لن أرى ثانية هذه الأخوار الثلاثة الغاطسة في الهضبة الهائلة.

وخيل إليّ أنني لمحت، على الناحية الأخرى، ناحية الغروب، ضفة مقابلة لواد صغير. واقتربت بخطوة متباطئة، لكي أقتصد في قوتي قبل العودة للعدو. كان بالفعل واديا، صغيراً، قد آنحدر الطريق إليه بقدر جعلني أقترب منه. هو نفس الوادي الذي كانوا فيه بالصباح!

ومددت يدي، وأزحت نباتات البطم، والأزهار، التي كانت هي الأخرى أطول مني... وكنت على مسافة خمسين متراً من الحافة، عندما دوت طلقة، وبعدها، بثانيتين، دوت طلقة أخرى! وكان صوتها قادماً من أسفل، وانطلقت، مضطرباً من الفرح، في اللحظة التي كان فيها سرب من الطيور الكبيرة طالعاً من الوادي، ومتجهاً نحوي مباشرة... وترنح الطائر الذي كان بالمقدمة فجأة، وضم جناحيه، وارتطم بقوة بالأرض، متخطياً عرعرة كبيرة. وانعطفتُ لألتقطه، عندما شعرت ببعض الدوار، بسبب ضربة عنيفة طرحتني على ركبتي، فقد سقط طائر آخر فوق رأسي، وانهرت للحظة. وفركت بقوة رأسي التي كانت تطن، فرأيت يديَّ غارقتين في الدم، واعتقدت أنه دمي، فغرقت في الدموع، ثم استنتجت أن الطيور هي التي كانت مدماة. وهدأ روعي.

وأمسكت بكلا الطائرين من أرجلهما، وكانا مايزالان في رعشة الاحتضار. كانا درّاجين. لكن وزنهما أدهشني، فقد كانا كبيرين في حجم الديوك الداجنة، وكنت أرفع ذراعي عالياً بهما. فيلمس منقاراهما الأحمران حصى الأرض.

ورقص قلبي بين جوانحي، فسوف يبحث عنهما الصياد الذي اقتنصهما، وسيحتفي بي، ويعيدني للمنزل، لقد كتبت لي النجاة!

وعندما عبرت بمشقة، دَغلاً من زهور «الأرجيرا»، سمعت صوتا يرن، وكان صداه يلوك حروف الراء. وكان هو صوت الأمان، صوت العم جول، وصوت العناية الإلهية!

ومن خلال الأغصان، رأيته. فقد كان الوادي عريضاً بعض الشيء وقليل الشجر، ولم يكن عميقاً. وكان العم جول آتيا من الضفة المقابلة، وهو يصيح، في دعابة ثقيلة:

– لا، يا جوزيف، لا! لم يكن يجب أن تطلق النار! فالطيور كانت قادمة

صوبي! وجعلتها طلقاتك الطائشة تهرب!

وسمعت صوت أبي، الذي لم أتمكن من رؤيته، لأنه كان تحت الحافة:

– لقد كنت في وضع طيب، وأعتقد أنني أصبت إحداها!

– كف عن هذا، رد العم جول باحتقار. كان يمكنك أن تصيب إحداها لو أنك تركتها! لكنك كنت تحاول تحقيق «ضربة الملك» وتصطاد اثنين بضربة واحدة! وقد أخطأتها في الصباح!، وهاأنت حاولتها ثانية مع الحجل، الذي كان آتيا صوبي!

– أعترف أنني تعجلت قليلاً، قال أبي، بصوت مذنب... ولكن مع ذلك...

– مع ذلك، قال العم بصوت قاطع، أخطأت درّاجات كبيرة في حجم الطائرات الورقية، برشاش يصيب مساحة ملاءة سرير. والأتعس من هذا، أن هذه الفرصة النادرة، لن تتكرر أبدا! ولو تركتني أنا أطلق لكان الدراج في أجربتنا الآن!

– أعترف بأنني أخطأت، قال أبي، ومع ذلك، فقد رأيت ريشا يتطاير...

وأنا أيضاً، تهكم العم جول، رأيت الريش الجميل يتطاير، حاملاً الحجل بسرعة ستين كيلو متراً، إلى أعلى الحافة، ليسخر منا!

واقتربت، ورأيت جوزيف المسكين، تحت كاسكيتته التي تتوسط رأسه، كان يمضغ بعصبية عوداً من إكليل الجبل، ويطأطئ رأساً محزوناً. عندها، قفزت إلى قمة صخرة تبرز في أعلى الوادي، وشددت جسدي كالقوس، وصحت بكل قوتي:

– «لقد أصابهما! أصاب اثنين معا! أصابهما!»

وبقبضتيَّ الصغيرتين المدماتين اللتين تدلت منهما الأجنحة الأربعة الذهبية، رفعت عالياً نحو السماء مجد أبي في ضوء الشمس الغاربة.

حامل النبأ الطيب، موضع ترحيب، حتى ولو كان مجرماً.

نظر أبي إليّ من أسفل، بابتسامة متألقة. ولم يقل شيئا سوى: «اثنين معاً، جول. اثنين معاً!». ثم انتبه فجأة للموقف فصاح: «ماذا تفعل عندك؟» لكن صوته لم يكن يعبر إلا عن السعادة بالمفاجأة.

وقذفت بالطائرين، واحداً بعد الآخر، عند قدمي المنتصر، وانزلقت على المنفذ هابطاً. وعندما لمست قدمايَ أرض الوادي، وثبت وثبة صغيرة جانبية، فقد كان وابل من الزلط يتدحرج خلفي.

وبدا أبي خلال هذا، معجباً بطيوره، وبحث بيد مرتجفة عن مواضع الضربات القاتلة.

وسألني العم جول بخشونة:

– ماذا تفعل بعيداً هكذا عن البيت، في الساعة السادسة مساء؟ ألا تعرف أنه كان يمكن أن تتوه؟

– هذا ماحدث، لقد تهت بالفعل، قلت... سأحكي لكم كل شيء. لكن أعطوني أولاً شيئاً أشربه، فأنا ميّت من العطش منذ الصباح...

– ماذا؟ صاح أبي. ألم تتغدّ بالبيت؟

– لا، فقد تعقبتكم من على بعد. سأشرح لك كل شيء، ولكن أعطني شراباً، فلساني متورّم، وهذا يصعّب عليّ الحديث...

– لم يعد لدينا سوى نبيذ أبيض، قال العم وصب لي قدحا.

– جرعة واحدة فقط، قال أبي. سوف تشرب في البيت...

وأطعته، ثم قصصت ملحمتي. فأعلمتهم، بافتخار، أنني أنا الذي دفعت نحوهم بطيور الدراج الأولى.

قال العم:

– لقد فهمت، أنه يوجد شخص بأعلى التلال. لكنني اعتقدت أنه صياد... إذن فقد خدمنا عصيانك في شيء، هذا أمر لا أوافق عليه، ولكن عليّ الاعتراف بجميله.

– وطيور الحجل! قال أبي الذي راح يشم ريشها موحياً بإعجابه بلحمها. بدونه لم يكن بإمكاننا العثور عليها أبداً. ولا حتى البحث عنها. فكنت سأعود خائباً.. خاوي الوفاض!

– كنت سأعطيك الشحارير، قال عمي بكرم.

– لم يكن ذلك ليكون سوى كذبة!

– عجباً! قال العم، كذبة الصياد، شيء لا يستأهل حتى الاعتراف بالجميل!

كنا، ثلاثتنا، جالسين على حجر كبير.

– ماذا أصاب وجهك؟ سألني أبي فجأة كأنه أفاق من الحلم.

– لاشيء، هو الصمغ.

وقصصت قصة خروجي في هدوء من البيت، والورقة التي تركتها لأمي، وعزمي اللحاق بهما في (بئر التوتة)، وحكاية النسر الرهيبة. فانتقص العم من شأن الطائر الجارح مفضلاً الصقر عليه، وأعلن أنه عندما كان في سن العاشرة، قتل نسرين بالأحجار.

وثبّط حديثه من همتي، فلم أتحدث عن خوفي، وشعوري بالوحدة. ولا عن يأسي، وقررت أن أحتفظ بهذه الحكايات المؤثرة لأمي العاطفية، ولبول المرهف.

فضلاً عن أن أبي كان يستمع لي على مضض، بسبب طيور الحجل، التي

كان يجفف دمها السائل من مناقيرها ويمسّد ريشها الأحمر الطويل.

ونهض العم فجأة.

— ياعزيزي جوزيف، قال، أعتقد أن وقت العودة حان، فلأن هذا أول يوم، صارت قدماي ترهقانني.

وكانت قدماي أنا الآخر ترهقانني، ولم أكن أقدر على الوقوف. ونظر لي أبي برقة، ومسّد شعري، ثم أفرغ بندقيته، ومدها نحوي:

— احمل هذه، قال لي .

كان هذا مكافأة كبيرة، فأمسكت باحترام بالسلاح المنتصر.

وفتح أبي جرابهُ، الذي كان يحتوي عدداً من الفرائس.

— لم يعد عندي مكان أضعهما فيه، وأفتى قائلاً. سيكون من الخسارة تركهما يفسدان.

وبطرفي خيط، علقهما من رقابهما في حزامه. الأول ناحية اليمين، والثاني ناحية اليسار. ثم أولاني ظهره، وهبط التل ويداه على فخذيه.

— اقفز ياغلام!

وعلقت البندقية الكبيرة من حمّالتها على كتفي، ومضى العم جول أمامي، بعينين مترصدتين، لأية مفخرة أخيرة ممكنة.

— ربما لاقينا أرنباً برياً، قال.

وخشيت أن يتمكن من هذا، لأن اصطياده لأرنب برّي بوسعه أن يقلل من قيمة انتصار الحجل، لكننا لم نر أية آذان. وعندما اطمأننت لعدم ظهور أي أرنب، عند خروجنا من غابة الصنوبر، لمحت على مسافة قليلة في الأسفل، بيتنا، وكانت إلى جانب الطريق، أشجار الزيتون، التي تأوي إليها صراصيري...

وضحكت من السعادة، وأنا أجذب بقبضتي خصلات شعر أبي... وحين مررنا أمام أكمة الزيتون، برز أمامنا فجأة هنديٌ صغير جداً من السِّيو، كان متوجاً بالريش. وحاملاً جعبة من السهام على ظهره، وراح يطلق علينا بشكل متوحش بأصابع يده طلقات طبنجة، ثم هرب إلى البيت، وهو يصيح:

– ماما! لقد اصطادوا بطاً.

وجاءت أمي، وخالتي، اللتان كانتا تحيكان تحت شجرة التين، نحونا تتبعهما «الخادمة»، وكان هذا استقبال الظافرين. وهتفت النسوة الثلاث هتافات الفرح والمحبة.

وأثناء ما كنت أهبط من على أكتاف أبي، تعلق بول، بخفة شديدة، بالحجل، وحمله بذراعيه وجرى نحو النسوة الثلاث.

ورفعت الخادمة عينيها نحو السماء، وعقدت يديها، وصاحت، قبل أن يغمى عليها:

– يا أمي الطيبة! درّاج الملك!

أثناء ذلك، ألقى العم على طاولة الشرفة في ضجة شديدة، حفنتين من الشحارير وعصافير السمنة، وخمس أو ست دراجات، وأرنبين. مما جعل أبي يفرغ بدوره جرابه، الذي احتوى على ثلاث دراجات، ودجاجة أرض، وقال:

– انظري ياروز، كل هذا من صيد جول!

– وأنت؟ سألته أمي المحبطة.

– أنا، قال في تواضع، لم أصطد سوى الحجل.

ولمحت بوضوح أن هذا أثلج قلبها.

وهرعت أنا إلى «الثلاجة» ـــ التي كانت خزان صابون يحتوي لوح ثلج

-لكي أشرب ماء باردا. ووجدت، إلى جوار الدورق الزجاجي، طبقين من أطباق الفاكة مليئتين بالكريمة المخفوقة، وأسرعت أقبل أمي، التي أصرّت أن تغسل لي وجهي، وبعد أربع مرات من الغسل بالصابون، دهنته لي بزيت الزيتون (وظلت على خدي الأيمن لثمانية أيام بقعة كبيرة سمراء، لاصقة ومنفّرة، لكنها من لون هندي سيو خالص)، بعد ذلك، وعند رؤيتها لحالة سيقاني التعسة، أجلستني على كرسي مريح، وسخّنت إبرة بطرف عود كبريت، وراحت تنتزع الأشواك الصغيرة التي كانت توخزني بوحشية. وعلى حين كان بول يراقب العملية عن كثب. وهو يئن بدلاً مني من الألم، ظللت أنا ساكناً، محتملاً، وفخوراً، كمحارب عائد من المعركة.

أثناء ذلك، راح أبي يقص بالتفصيل أمجاد العم جول، وراح يثني على حاسة شمّه الشبيهة بحاسة كلب الصيد، وطريقة سيره المتسحّبة، ودقة حكمه، وسرعة إطلاقه. وضبط تصويبه... وكان العم يستمع في سعادة أمام زوجته، وأمي المعجبة. وبعد خمسة أوستة مقاطع قالها هو الآخر في الفخر، بدأ يحتجل، أي يتحدث عن الحجل، فأخذ يطري مجد جوزيف، مثنيا على هدوء أعصابه، برغم إخفاقاته الأولى، والجهد الذي بذله ليسيطر على نفسه، وصموده أمام التعب، وأخيراً، على سرعة إلهامه الرائعة، التي ختمت اليوم الجميل؛ وأنهى العم كلامه بجملة التمعت لها العينان السوداوان لأمي:

- «ضربة ملك» مزدوجة على الحجل الملكي، نفّذها مبتدئ، أنا أقول: إن أحداً لم يشهد مثل ذلك أبداً!

ورغبت في الحديث بدوري، لكي أطري نفسي، لأن الصيادين قد نسياني، لكنني نعست فجأة، وشعرت بأصابع أمي تفرد يدي المتسخة على مساند المقعد، ثم حملتني إلى داخل البيت. وحاولت أثناء نعاسي الاحتجاج، باسم الكريمة المخفوقة، ولكني لم تصدر عني سوى تذمرات واهنة، بعدها اقتادني يربوع نطاط

أبيض اللون، بحجم الأرنب البري، في أربع وثبات إلى وديان النوم الظليلة.

٭ ٭ ٭

صباح اليوم التالي، راحت أمي تحرر، في ركن من طاولة المطبخ، قائمة المهمات، أيْ المشتريات التي كان على أبي القيام بها في القرية.

– ياغلام، قال لي، أحضر كيسك، ستأتي معي، فالقائمة طويلة، وسأكون مُحمّلاً بالكثير! ليس في الوزن، وإنما في الحجم، فسآخذ معي بندقيتي، لأنني لاحظت صقرا يحوم غالب الوقت فوق قن دجاج السيدة «توفي»، فإذا لم نره اليوم، سنقول لها كلمتين ونحن مارّون!

وانتهت أمي من القائمة، ومن النقاش بصوت عال، وهي تخرج الحجلين من خزانة الطعام وتضعهما على الطاولة:

– ماالذي ستفعلينه؟ سألها في قلق.

– سأنتفهما، وأنظفهما، لنشويهما في المساء.

– للأسف! هذه ليست فراخاً. إنها فرائس!.. لن نأكلها إلا في الغد، فأكلهما اليوم سيكون جريمة، فضلاً عن أنني أرغب في تثمينهما بخبرة السيد موند دي باريون، فلا يجب إهدار فرصة كهذه للتعلم. وهذا الصياد المخالف العجوز يعرف بالتأكيد أكثر مما يعرف محنّطو الحيوانات.

وعلق الطائرين في حزامه، ثم تناول بندقيته ووضعها على حمالته.

ومضينا في سعادة شديدة. أنا أحمل الأكياس الثلاثة الفارغة، وهو يسير

أمامي، ويتفحص بنظره بساتين الزيتون القائمة على حواف الطريق. وصادفنا بضع أسراب من عصافير الدوري، لكن صائد الحجل ازدرى هذه الطيور الصغيرة.

كنت في غاية السعادة لكوني معه، وفي شدة الفخر لصنيعه، لكنني كبحت نفسي كي لا أظهر هذا الزهو، خشية أن يوبخني.

فذات يوم عاد السيد أرنو، الذي كان من هواة صيد السمك، إلى المدرسة، بعد اصطياده – بالصنارة – «هلَوق» بحرٍ كبير، وأحضر معه صورة فوتوغرافية لهذه المفخرة.

في تلك الحقبة، كانت الصورة الفوتوغرافية وثيقة نادرة، تُخلّد ذكرى الطفولة الأولى، وذكرى الخدمة العسكرية، وذكرى الزواج أو الرحلات إلى الخارج.

وفي ذلك اليوم. شاهدنا فيما يُشبه البطاقة البريدية، صورة السيد أرنو مبتسما، نافخاً صدره، وفي يده اليمنى صنارة الصيد، وذراعه اليسرى مرفوعة لأعلى ، تمسك من الذّيْل بالسمكة ذات الأشواك.

يومها، على طاولة الطعام، تحدث أبي عن هذه اللوحة المعبرة عن الانتصار، قائلا:

– أن يُسَرّ المرء بالحصول على شيء جميل، هذا أمر مرغوب، ولكن أن يصور نفسه مع سمكة! ذلك أمر مخزٍ!، والزهو، لاشك أنه أكثر النقائص البشرية عيباً!

ولم يقل ذلك بعنف، وإنما بابتسامة رحيمة، دمرت إعجابي بالسيد أرنو، وهو ماجعلني أعتبر أن زيارتنا للسيد موند دي باربيون ليس لها سوى هدف علمي.

ووصلنا أمام المزرعة الصغيرة الواطئة التي يعيش فيها السيد موند الشهير، كان يحيط بها حقل غير مزروع، به دستة من شجر الزيتون، اتخذت هيئة الحرش، بسبب عدم العناية بها، فالسيد موند لا يهذبها أبدا. كان معتلياً دكة، أمام باب البيت، تحت شجرة توت، وممسكا بدلو من الصمغ، غطست فيه عصا رفيعة من الخشب. ورفع رأسه، كانت سوالفه كثيفة كثّة رمادية اللون، بيضاء من ناحية، ومصفرة من الناحية الأخرى بسبب عقب السيجارة المتدليّ من ركن فمه. كانت عيناه سوداء ثاقبة، ويداه المشعرتان مرصعتين ببقع صفراء.

وعندما رأى الحجلين، نهض وتقدم، فاغر الفاه.

– ياأمي الطيبة! صاح، كيف اشتريت هذه؟

وابتسم أبي ابتسامة صغيرة.

– لم تكلفني سوى طلقتي بندقية.

– ضربة مزدوجة؟ قال موند بتشكك. حجلين بضربة واحدة؟

– نعم، قال أبي. ومَسّد شاربه الأسود، بطرفي إصبعيه: الإبهام والسبابة.

– وأين حدث هذا؟

– في وادي لانسلوت. أسفل الحافة مباشرة، من ناحية الهوة.

وأخذ موند الطائرين، ووزنهما في يديه.

– إن المدهش جدا، أنك عثرت عليهما.

– لماذا؟

– لأن هذه العجماوات، حتى وهي ميتة في الهواء، تستمر طائرة مسافة خمسمائة أو ستمائة متر.

– كان الصغير فوق الحافة، وهو الذي رآها تسقط.

– برافو يا شاطر، قال لي موند، مرحى مرحى. سأصحبك للصيد معي.

وأعلن، كما لو أن ذلك قاعدة من قواعد الحياة!

– حين لا يكون معنا كلب صيد، فلابد لنا من الأطفال!

عند ذلك، طرح أبي عليه ألف سؤال حول الحجل، أصلها وطبائعها، وصعوبة الاقتراب منها. وسرعة طيرانها.

من هذه الأسئلة، ومن إجابات العجوز موند، خرج بنتيجة واضحة مؤدّاها، أن اصطياد حجلين بضربة واحدة، يُعَدُّ مفخرة، إذا لم تكن أمراً مستحيلاً. فهي على الأقل نادرة جداً، ولا تحققها إلا «بندقية عظيمة».

وعندما وضحت هذه الحقيقة، ودعنا السيد موند ـــ الذي كان قد شرع في أن يَقُصَّ علينا نجاحاته الخاصة بزهو، جعلني أفكر في زهو السيد أرنو ـــ وهبطنا إلى القرية. وترك أبي «القائمة» للبقال، في الدكان الصغير الذي كان به خمس أو ست زبائن. لكن البقال، والقائمة في يده، لم ينظر إليها، وراح ينظر إلى الطيور صائحا: «ديكة الأحراش الصحراوية!»

وأعاده أبي إلى صوابه قائلاً له بضع كلمات حول حياة وعادات الحجل. وعرض البقال أن يزنهما، الأمر الذي قبله أبي شاكراً. وجرت العملية على مرأى من المحفل اللاغط.

كان وزن الأسمن ١٥٣٠ جراما، والثاني ١٢٦٠ جراما، فقد أراد البقال أن يحدد وزنهما بدقة. وكانت من بين الجمع عجوز نظيفة الهيأة (كانت خادمة القسيس) أوصت بحشوهما بفلفل قبل وضعهما في السفود، وبألا نقربهما من النار في بداية الشواء، أي أن نجعل سيخ الشواء الدائر يقترب من النار على ثلاث مراحل، على الأقل. وطلبت في مقابل هذه النصائح الثمينة، السماح لها

بأن تأخذ ريشة ذيل، وضعتها على رأسها، بطريقة زعماء الهنود «الباوني»، وراح جميع الداخلين الجدد للدكان ينظرون باحترام للصياد الذي استطاع أن يصيب هذه الإصابة. وتركنا القائمة للبقال، الذي تكفّل بإعدادها كلها، وقال لي أبي: «هيا بنا، فلابد لنا من سؤال السيد فنسان».

كان السيد فنسان موظف أرشيف بالمحافظة، وكان صديقاً للعم جول، وكان يقضي إجازاته في هذه القرية، مسقط رأسه.

لكننا في الطريق، صادفنا ساعي البريد الذي كان قد اصطاد بنفسه على أراضي «الألاوش» بمنطقة «البوش دي رون»، فاستوقفنا. وأدهشني أنه راح يتحسس رقاب الحجل بسبابته وإبهامه:

– كلام بيننا، قال بصوت خفيض، هل اصطدتهما بالفخ؟

– أبداً! قال أبي، لقد اصطدت الاثنين معا «بطلقة مزدوجة»، لأنني تمكنت من تحقيق «ضربة ملك».

وبدت على الساعي ملامح الغيرة، وراح يتحسس رقاب الطيور، بأمل أن يكتشف فيها أية كسور، وراح أبي، الذي كان ينفخ من الغيظ، يرفع له ريش الطيور، ويريه الجروح القاتلة، التي أخذ الساعي يتفحصها بتشكك. وكان من الضروري بعد ذلك أن يستفسر عن عيار البندقية، ومقاس الرصاصات، والمسافة، ولحظة الإطلاق.

ثم تمكن في نهاية المطاف من السمو على غيرته، وأذعن للاعتراف بالمعجزة.

– أيها السيد، قال، أنا أرفع قبعتي تحية لك. فأنا أتعقّب هذه العجماوات منذ عامين، وقد أطلقت عليها خمس مرات، ولم أحصل إلا على بعض الريش! فاسمح لي بأن أشد على يدك.

خلال ذلك، كان أطفال القرية يلتفون حولنا، وهم يصيحون صيحات الإعجاب.

وعند وصولنا للساحة الصغيرة، وقعنا على قسيس القرية، الذي كان يقرأ في كتاب صلواته أمام النافورة، وهو يترقب صوت جرته، التي كان يملؤها.

وجعله وصول جمعنا يرفع رأسه ناظرا. ونظرا «لأن هؤلاء الناس ينتهزون كل الفرص» ، ابتسم ابتسامة عريضة لأبي، وقال. بصوت لطيف:

– أيها السيد، إذا لم تكن اشتريت هذا الحجل من عند أحد التجار، فاسمح لي أن أهنئك!

– وكانت هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها أبي. وجها لوجه، مع العدو الماكر. وأجاب عليه أبي، في ظل دهشتي الشديدة. بتهذيب:

– لقد جئت بها من وادي لانسلوت، أيها السيد القس.

– نادرا ما رأيت حجلا جميلا بهذا الشكل، قال القسيس، وأعتقد أن القديس هوبير قد منحك بركته!

– كان القديس هوبير العظيم، هو بندقيتي عيار ١٢!

– ودقة تصويبك أيضا! قال القسيس... فما حصلت عليه عبارة عن حجل ذكر عجوز وحجلة أنثى صغيرة بنت سنتين... فقد كان أبي صياداً عظيماً، وهذا هو السبب في أنني على معرفة طيبة بالصيد. فهذا الحجل ليس من نوع (الكاكابيس روفا)، الذي هو أصغر من ذلك في الحجم بكثير. إنه من نوع (الكاكابيس سكاتيل) أي حجل الصخور، الذي يدعى أيضا بالدرّاج اليوناني، ويسمونه في الريف بـ «البارتافل» .

– ومن أين أتى هذا الاسم! سأل أبي .

– حسنا، قال القس. قد أبدو لك مطلعاً بشكل جيد، ولكني أعترف لك أن معرفتي بهذا الشأن حديثة. فقد حدثني فلاح بالأمس عن «البارتافيل». ودفعني فضولي للبحث عن أصل هذه الكلمة، ويسعدني أن هذه القضية تشغلك. فقاموسي يقول إنها كلمة فرنسية انحدرت من كلمة ريفية عتيقة، هي «بارتافيللو»، التي كانت تعني القفل الضخم. وقد تمت تسمية الطائر بهذا الاسم بسبب صرخته، التي يبدو أن لها صريراً كصرير القفل نوعا ما. لكن من رأيي أنا المتواضع جداً، أن هذا التفسير ليس كافيا بالمرة. وسوف أتحدث مع السيد كبير الأساقفة، الذي سيحضر للغداء غدا في (بريبتر)، فإذا قال لي شيئاً هاما بهذا الشأن، سيسعدني أن أعلمك به. أما الآن فأرجو معذرتك، لأن جرتي امتلأت، والجرس يدعوني.

ورفع قلنسوته بأدب شديد، ورفع له أبي كاسكيتته، وحمل القسيس جرته ومضى. وذهبنا نفتش عن السيد فنسان، يتبعنا الأطفال، فأخبرونا أنه بالمدينة، ولن يعود إلا في الغد، ومع ذلك بحث عنه أبي في كل القرية، حتى أنه ذهب إلى ساحة اللعب ليسأل المتبارين في لعبة الكرات الحديدية ما إذا كانوا قد رأوه، لكنهم لمحوا الحجل التي لم يكن أحد يفكر في إخفائها، فقطعوا لعبهم، وأبدوا إعجابهم بها، ورجحوا وزنها في أيديهم، وسألوا مائة سؤال، وأجاب أبي مائتي إجابة، وهو يعلمهم أنها ليست من نوع الـ (كاكابيس روفا) ولكنها من نوع الـ (الكاكابيس سكاتيليس).

وفي نهاية الشروح، استجاب راضيا، بناء على طلب الجميع، لأن يقوم أمامهم بتمثيل «ضربة الملك»، ففعل ذلك، وهو يؤكد على ضرورة الاحتفاظ بالماسورة «الضيقة» للبندقية للطلقة الثانية. وكان يمكن لهذه الشروح التقنية أن تستمر للمساء، ولكن أوقفتها لحسن الحظ دقات ساعة الكنيسة، وهي تعلن تمام الثانية عشرة ظهراً.

وذهبنا لأخذ أكياسنا من عند البقال، فقابلنا القسيس للمرة الثانية. وكان يحمل آلة تصوير فوتوغرافي، لها شكل، وأبعاد، وأناقة، بلاطة مصقولة من الحجر.

وتقدم منا مبتسما، وقال:

– إذا لم يكن هذا يزعجك، أريد أن أحتفظ بذكرى نجاحك البديع.

– كان الأمر ضربة حظ، قال أبي في تواضع، وربما لا يستأهل كل هذا الشرف الكبير.

– بل يستأهل، نعم يستأهل!.. وسيسعدني أن أرسل لك نسخة من هذه الصورة، التي ستكون ذكرى طيبة لإجازتك السنوية هذا العام.

ورضخ أبي بانقياد لمتطلبات التصوير، كان يبدي لي أنه يعاني من هذا، ولكنه لم يتجاسر على ألا يكون مهذبا. فأسند إلى الأرض كعب بندقيته، وأسند يده اليسرى على طرف الماسورة، وأحاط كتفي بذراعه الأيمن. ونظر إلينا السيد القسيس مدة برهة، وهو غامز بعينه، ثم تقدم، وعدَّل من وضع الحجلين ـــ اللذين كانا معلقين طيلة الوقت في الحزام ـــ حتى يبرز في مقدمة المشهد بطنيهما المدمشقتين.

ثم تراجع أخيراً لأربع خطوات، ورفع الآلة إلى مستوى حزامه، وحني رأسه وصاح:

– لا تتحركوا !

وسمعت تكة، في قوة تكة القفل. وراح القسيس يعد:

– واحد، اثنان، ثلاث! شكرا!

– نحن نقطن في البيللون، قال أبي، بالبيت المدعو بالحصن الجديد.

– أعرف، أعرف، قال القسيس.

ثم أضاف بصوت مؤثر بعض الشيء :

– لكني لعدم سنوح الفرصة للتردد عليكم، سأعهد بالصورة التي سأرسلها لك للسيد عديلك، الذي هو أبرز أفراد رعيتنا الكنسيّة. أقول لك الآن إلى اللقاء، ومرة أخرى تهانئي!

ومضى، مؤدباً، صدوقاً، مبتسماً، وكان من الرقة بحيث رغبت في أن أتبعه، الأمر الذي جعلني أفهم مدى الخطر الذي تمثّله هذه المظاهر الزائفة بالنسبة للمجتمع. وعندما غادرنا منطقة الساحة، قال أبي :

– نحن في قرية صغيرة، فمن الرعونة أن نظهر له رفضنا، ولربما كان هذا هو ما يطمح فيه، لكي يتهمنا، من ثم، بالتعصب. لكننا كنا أخبث منه !

‹› ‹› ‹›

ومضينا، بخطى حثيثة في طريق العودة الصاعد.

كانت الطيور تتأرجح طيلة الوقت في حزام أبي، ولأنها كانت معلقة من رقابها، وداعبته بقولي أنه اصطاد طيور حجل ، لكنها، حين نأكلها، ستكون قد صارت بجعا.

ووضعناها في اليوم التالي بالأسياخ، وكانت وجبة تاريخية، وشبة احتفالية. برغم أنه قد شابها حادث مفجع، فالعم جول، الذي كانت له شهية فلاح، هي محل إعجاب كل العائلة، انكسر له ضرس ـــ من البورسلين ـــ تحت شظية

رصاصة من عيار ٧، كانت مختبئة في وِرْك طري. لكنه ابتسم ابتسامة كبيرة عندما أعلن أبي أن قسيس القرية رجل مثقف، بل وأكثر من ذلك. أنه رجل ودود جداً، وأن المحادثة معه كانت لطيفة.

في اليوم التالي، عندما ذهبنا للصيد، وجدته قد ترك كاسكيتته، ووضع بدلا منها قبعة من اللباد الكستنائي، قال: إنها ستقيه «من الشمس التي كانت تسقط على عينيه، فتزغللهما». لكني لاحظت ـــ في صمت ـــ أن حافة اللباد كانت محاطة بشريط ـــ لا يمكن وضعه على كاسكيت ـــ وكانت معلقة بهذا الشريط ريشتان جميلتان حمراوان، رمزا أو ذكرى للإصابة المزدوجة «لضربة الملك».

منذ ذلك اليوم صاروا في القرية، عند الحديث عن أبي، يقولون:

– هل تعرفون هذا السيد الذي يقطن البيللون؟

– من؟ .. هذا الذي له شارب ضخم؟

– لا، الآخر! الصياد! صياد الحجل!

◊ ◊ ◊

في الأحد التالي، وعند عودة العم من الصلاة، أخرج من جيبه مظروفاً أصفر وقال:

– هذا، من عند القسيس .

وهرعت كل العائلة. كان المظروف يحتوي ثلاثة إثباتات فوتوغرافية.

وكان ذلك إنجازاً، فطيور الحجل كانت كبيرة، وكان جوزيف يتألق في عز مجده؛ ولم تبد عليه الدهشة أو الزهو، وإنما بدا عليه الاطمئنان الهادئ لصياد ملول، في صيده المئوي للحجل.

أما أنا، فكانت الشمس قد جعلتني أقطب في الصور بعض الشيء، الأمر الذي لم أبد معه وسيماً في نظري، لكن أمي وخالتي وجدتا في ذلك جاذبية شديدة، وظلتا وقتاً طويلاً تبديان إعجابهما. أما العم جول فقد قال في رقة:

– أود أن أحتفظ بالنسخة الثالثة، إذا لم يكن لديك مانع، يا عزيزي جوزيف، لأن السيد القسيس قال إنه طبعها من أجلي.

– بالطبع، إذا كان هذا الشيء الذي لا معنى له سيسعدك، قال أبي .

– آه نعم، قالت الخالة روز بابتهاج، سوف أضعها في إطار زجاجي ونعلقها بقاعة الطعام! وأحسست بالاعتداد لأننا سيسطع على صورتنا، كل مساء، الضوء الفاخر لمصباح الغاز ببيتهم. أما العزيز جوزيف، فلم يبد عليه أيُّ ارتباك. كانت ذقن أمي متكئة على كتفه، وهو يتأمل بإمعان وثيقة تمجيده، متحدثاً عن قصر البرهة من الزمن التي استغرقتها عملية التصوير، بالتعبير عن احترامه للتقنيات. وأعلمنا خلال ذلك أن الصورة، هي عبارة عن ورقة مشبعة بسترات الفضة، ثم وملوحاً بالصورة بطول ذراعه، أعلن أن الإضاءة كانت رائعة، على الرغم من أن ارتفاع شمس الظهيرة قد مط من أنفه قليلاً، وهو «مالم يكن أمرا ذا بال على الإطلاق». ثم رفع، في أعقاب ذلك، نظارته، وتفحص الصورة عن قرب شديد، من جميع الزوايا، وأعلن أن اختيار اللقطة كان ممتازاً، الأمر الذي يثبت أن القسيس كان يعرف جيداً ما فعله.

ثم أعلن أخيراً، وهو يمسِّد لي على شعري:

– بما أن لدينا نسختين، أريد أن أرسل واحدة لأبي، لأريه كيف صار مارسيل كبيراً...

وصفق بول الصغير بيديه، وانفجرتُ أنا في الضحك. فقد كان بالفعل فخوراً جداً بصنيعه؛ وقد أرسل نسخة من الصوة لأبيه، وعرض الثانية على كل المدرسة، كما فعل السيد أرنو.

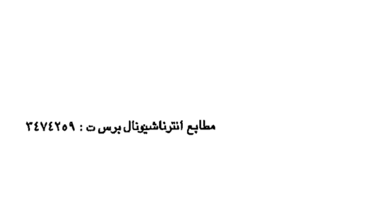
لقد تكشف أمامي مثالي القوي العزيز في عز ضعفه الإنساني، وشعرت بأن حبي له قد تضاعف.

عندها، كدت أطير من الفرحة، ورقصت في الشمس.



صدر في هذه السلسلة :

(٣٢) أبعد من زنجبار ❖ محمد الحارثي
(٣٣) أناهيد ❖ محمد يوسف
(٣٤) فضاء المرائي ❖ عبد الله السمطي
(٣٥) المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسال
(٣٦) فحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
(٣٧) فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس
(٣٨) تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر
(٣٩) بريق الرماد ❖ منير رمزي
(٤٠) مجد أبي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ١)
(٤١) قصر أمي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٢)
(٤٢) زمن الأسرار ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٣)
(٤٣) زمن الحب ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٤)



مطابع أنترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩



بما أنني أصبحت الآن جَدّاً، تتملكني في كثير من الأحيان الرغبة في حكاية الحكايات، وهي الوظيفة الطبيعية للأجداد، تلك التي قد تكون مزيتهم الكبرى.

كان جدي يحكي لي حكايات «جلد حمار» (القصة الشعرية لبيُّرو) و«الجميلة والوحش» و«ريكيت والرشاشة»... أما أنا فأُفَضّل أن أحكي لكم عن طفولة ولد صغير، ربما لا يختلف كثيراً عن الطفل الذي هو فيكم، لأن الأولاد الصغار في كل بلاد العالم وعبر كل الأزمان لديهم دائماً ذات المشكلات، ونفس المكر، ونفس الحب.

مارسيل بانيول